www.rewayti.net

وحيدة في باريس

اصبح اسم مطعم الطاحونة الحمراء، في أنحاء العالم اجمع، مرادفاً لاسم العاصمة باريس، وكذلك لكلمة أخرى هي التسلية.

لقد كانت تلك المدينة مركزاً للسياحة والضحك، للشعراء والرسامين، وقد دام العهد الذهبي لمطعم الطاحونة الحمراء ذاك خمس سنوات.

وسرعان ما اتخذت لاغولو لنفسها مركز البريمادونا أو الممثلة الأولى.»

وما ان انتهى القرن حتى كانت قد اصبحت تعمل في سيرك، وبعد ذلك بعدة سنوات، انتهت واصبحت سمينة جداً وفظة السلوك، وقد كبرت قبل الأوان ومن ثم اصبحت مفلسة تماماً.

سوريا: ٦٠ ل.س – الكويت: ٧٥٠ فلس – البحرين: ١دينار – قطر: ١٠ دراهم – السعودية: ١٠ ريالات – الامارات: ١٠ دراهم – الاردن: ١,٥ دينار – المغرب: ٨درهم مغربي. – سلطنة عمان ١ ريال.

www.rewayti.net

سألها: «من أنت؟»

«انني انتظر والدي...»

«والدك؟»

«نعم لقد طلب مني ان آتي إليه في باريس وكنت اظنه سيستقبلني في المحطة.»

«هل والدك هو جوليوس تورو؟»

«نعم، انني ابنته يونا.»

«نعم... هذا ممكن.»

«هل اصاب والدي شيئاً؟ هل هو مريض؟»

«آسف إذ اخبرك بأن والدك قد دفن أمس.»

www.rewity.com/vb/
روايتي عنوان

www.rewayti.net

الفصل الأول

١٨٩٢

ما أن ابتدأ القطار في التباطؤ ليدخل المحطة، حتى التفتت المربية المسؤولة عن الفتيات الثلاث إلى يونا تسألها: «هل ثمة من سيستقبلك في المحطة؟»

أجابت الفتاة: «نعم، إنني واثقة من أن والدي سيكون هناك، كنت قد كتبت إليه منذ اسبوع حيث أخبرته بأنني سآتي في هذا القطار.»

قالت المربية وفي صوتها نبرة ارتياح: «لا بأس إذن.»

ذلك أنها، عند شروعهن في هذه الرحلة إلى فرنسا، كان خوفها من مسؤوليتها هذه تجاه ثلاثة فتيات، واضحاً. ولكن يونا كانت من التهذيب والطاعة بحيث جعلتها تشعر بالمودة والامتنان والرضى لوجودها معهن.

أما الفتاتان الأخرتان، إبنتا الكونت بوسوار، فقد كانتا بالغتي النشاط والحيوية، واضحتي الضجر من مربيتهما التي كانت ترعاهما أثناء الإجازة، ولهذا كانت صغرى الفتاتين، ماري سيليست، والتي كانت في الرابعة عشرة فقط من عمرها، كانت لا تفتأ تسخر من مربيتها من وراء ظهرها، كما كانت مصدراً مستمراً لقلق المربية تلك.

www.rewayti.net

شعرت يونا بأن المربية، والتي لم تكن صغيرة السن، بأنها حريصة على الاحتفاظ بعملها هذا في منزل الكونت، لا لشيء إلا لأنها قد ألفت حياتها هذه فلم تشأ أن تبدأ من جديد مع أسرة أخرى، ولهذا كانت متشددة كثيراً في مسؤوليتها تجاه الفتاتين، بينما ماري سيليست كانت قد جعلت من الرحلة مصدراً للقلق منذ اللحظة التي تركن فيها إيطاليا.

ها هن الآن قد وصلن إلى باريس، وكانت يونا في الواقع، أكثر أسفاً لوداع المربية هذه ذات الوجه القلق، منها لوداع الفتاتين اللتين كانتا من زميلاتها في المدرسة الداخلية التي كانت قد أمضت فيها الثلاث سنوات الأخيرة.

كانت قد استغربت أن يرسل إليها والدها والذي لم يكن قد كتب إليها منذ وقت طويل، برقية، وذلك رداً على رسالتها الأخيرة إليه، يقول فيها: «تعالي حالاً، شارع لابروفيل، حي مونتمارتر باريس.»

لقد أخذت عند ذاك، البرقية إلى مديرة المدرسة التي عقدت حاجبيها وهي ترى العنوان، وسألتها: «هل يعيش والدك في حي مونتمارتر؟»

أجابت يونا: «نعم، يا سيدتي إنه فنان كما تعلمين.»

فأطبقت المديرة شفتيها بشدة وكأنها تجاهد في ألا تفصح عن رأيها ليس في الفنانين فقط، بل في حي مونتمارتر بالذات.

وقالت يونا بلطف: «لقد كتبت إلى والدي، يا سيدتي وأخبرته بأنه حيث انني أصبحت في الثامنة عشرة من

عمري، قد نفدت النقود التي كانت والدتي قد انفقتها على تعليمي. وسألته عما يريدني فعله الآن.»

فقالت المديرة وهي تلقي نظرة ازدراء على البرقية الملقاة أمامها: «وهذا كان جوابه.»

قالت يونا: «سيكون جميلاً أن أعود للعيش مع والدي، فقد أصبحت أكبر سناً من أن أبقى في المدرسة.»

فقالت المديرة: «لا أحب التفكير في أن أياً من تلميذاتي، وخصوصاً من في عمرك هذا، ان تعيش في حي مونتمارتر.»

ثم نظرت إلى يونا وهي تشعر بأنه كان عليها أن تتحدث عن الموضوع بشكل أوسع.

لم تستطع أن تتصور فتاة بمثل هذا الجمال والجاذبية، ان تختلط بالفنانين وحثالة مجتمع باريس، والذين كما يعرف العالم أجمع، يحتلون ذلك الحي الذي أصبح رمزاً لكل ما يصدم قيم الطبقة البورجوازية.

كانت مديرة المدرسة تريد منع يونا من السفر إلى باريس للعيش مع والدها. ولكن يونا كانت أكبر سناً من أن تبقى في المدرسة والتي كانت، في الواقع، كلية لتثقيف صغار الفتيات، كما ان النقود التي تركتها والدتها قد نفدت. ومع أن المديرة كانت قد جعلت مبدأها عدم محاولة معرفة خلفيات تلميذاتها، إلا أنها كانت تعلم جيداً أن ظروف يونا كانت غير عادية نوعاً ما.

ويظهر أن والدتها كانت قد اشترطت في وصيتها أن كل المبلغ الذي تركته يجب انفاقه على تعليم ابنتها. وقبل وفاتها بشهر واحد، كتبت إلى المدرسة في فلورنسا تطلب البيانات وشروط التسجيل.

www.rewayti.net

لم تكن تعلم فقط أن هذه المدرسة هي من أحدث المعاهد لتثقيف بنات الأثرياء، وإنما التعليم فيها ممتازاً وذلك في عصر كان فيه، حتى أكثر الأسر ثراء، يعتبرن تعليم البنات شيء لا أهمية له.

كانت الفتيات الفرنسيات في ذلك المعهد أكثر ثراء من الانكليزيات، وكانت معظم التلميذات فرنسيات وايطاليات. اما عدد الانكليزيات فهو قليل جداً، ولكن، حيث أن تعليمهن الابتدائي قبل حضورهن كان غير وافٍ، فقد وضعن في صفوف أدنى مستوى من الصف الذي كانت يونا فيه.

لقد كانت، في الواقع، تتمتع بذكاء غير عادي، وها هي ذي المديرة تتساءل الآن عن الكيفية التي ستستغل فيها ذلك الذكاء في حياتها المقبلة.

لقد كان رأيها على الدوام أن الفنانين، بوجه عام، ذوو مظهر رثٍ ودون أي مؤهلات عدا بالطبع حرفة الرسم.

على كل حال، كانت تعلم أن والد يونا لم يكن من فئة الرسامين المعتادة والتي لا تفتأ تزوّد الأماكن الفنية بنفائس الفنون.

فقد كان والد يونا، جوليوس تورو، جندياً في فرقة المدفعية قبل أن يتخذ الرسم حرفة له ومن ثم هاجر إلى فرنسا.

ولم تكن المديرة قد رأت أياً من رسومه، ولكنها كانت تسمع بها أحياناً، ليس في المجلات الفنية التي لم تكن تقرأها مطلقاً، ولكن في صحف تقليدية محترمة حيث كانت تتحدث أحياناً، عن المعارض والانجازات الجديدة في فن الرسم.

ولكن في أعماقها، كان لديها فكرة عن جوليوس تورو بأنه مجرد سيد يستمتع بإداء دوره كفنان، دون أن يكون هو نفسه فناناً حقيقياً.

لكنها الآن، وهي تنظر إلى ابنته، كان كل ما ترجوه هو أن يدرك مسؤوليته نحوها.

يمكنه، على الأقل، أن ينتقل من حي مونتمارتر عائداً إلى مكانه الأول المحترم الذي كان قد كتب إليها منه بشأن انتساب ابنته إلى معهدها.

وأخيراً، قالت بصوتها الهادىء الرخيم: «أتوقع يا يونا، أن يقدمك والدك إلى المجتمع. ولهذا، فأنا واثقة من أنه يدرك بأن ذلك سيكون مستحيلاً ما دمت تعيشين في حي مونتمارتر.»

أجابت يونا: «عندما كانت والدتي حية، كنا في غاية السعادة في بيتنا الذي كنا نعيش فيه خارج باريس، كان من عادة والدي أن يرسم في الحديقة، ولكن عندما كان يذهب إلى باريس، كنا والدتي وأنا، نبقى في البيت.»

فقالت المديرة: «كان هذا طبعاً، التعقل بعينه، وأنا واثقة من أن والدتك تريد منك أن تقنعي والدك بالعودة إلى مثل تلك الحياة.»

وتابعت بصوت فيه شيء من الاقناع: «إنني أعرف أنك تحبين الريف يا يونا، وقد تجدين صعوبة في التأقلم الآن في جوّ المدينة بعد هذه السنوات التي أمضيتها هنا.»

لم تجب يونا، فقد كانت تفكر في مبلغ البهجة التي ستشعر بها لرؤية باريس. كما أنها كانت واثقة من أن والدها يفضل الحياة المرحة في أسوأ المدن سمعة في

www.rewayti.net

العالم، على تلك الحياة الهادئة والكئيبة نوعاً ما، التي عاشوها في الماضي.

كان العجز عن دفع النفقات، هو أحد الأسباب التي كانت تمنع والدتها من الذهاب إلى باريس بكثرة.

حتى عندما كانت يونا فتاة صغيرة، أدركت أن عليهم الانتباه على كل قرش ينفق، وإذا كان هناك أية زيادة في النقود، كان ينفقها والدها على نفسه.

وعندما كبرت، أدركت أن المال الذي كانوا ينفقونه هو ملك والدتها. وكانت هذه قد قالت لها مرة: «لقد ورثته عن جدي. ومن حسن حظي أنه كان يكن لي مثل ذلك الاعزاز، ولولا ذلك لا أدري ما الذي كان سيحصل لنا.»

كانت في الخامسة عشرة من عمرها تقريباً عندما علمت يونا أن والدها اضطرّ إلى ترك وطنه وفرقته العسكرية بسبب فضيحة ما.

ولم تستطع أن تفهم ابداً ما قد حدث، سوى أن الأمر كان يتعلق بشيء قبيح يستوجب التعنيف البالغ قد تورط فيه أحد الضباط الكبار في المركز.

ومهما كان السبب، فقد أرغم على تقديم استقالته كي يتجنب المثول أمام هيئة المحكمة العسكرية، ومن ثم ترك وطنه وقد استبد به الغضب مصطحباً معه الفتاة التي كان قد خطبها سراً.

أما سبب السرّية تلك، فقد علمت يونا أنها بسبب رفض جدها لوالدتها لهذا الزواج كلياً.

وعندما تمردت عليه ابنته ذهبت مع الرجل الذي تحب، نفاها من حياته كلياً وقطع كل صلة له بها.

وهكذا ولدت يونا في فرنسا، ولأن والدتها كانت لا تنفك عن ذكر وطنها انكلترا بصوت ملؤه التمني والتعاسة، فقد بدت لها انكلترا، الفردوس الذي ستزوره يوماً، إذا أسعفها الحظ، لتشعر بنفس السعادة التي كانت ترتع فيها والدتها عندما كانت فتاة.

بدا لها غريباً ألا يكون لديها الآن سوى والدها، بينما كل الفتيات الأخريات لديهن العمات والخالات والأعمام والأجداد وأولاد الأعمام.

وشعرت بأنها كلما كبرت، ازداد افتقادها لوالدتها عاماً بعد عام حتى أصبح يزيد عما كانت تشعر به عند وفاتها.

كان هناك أشياء كثيرة كانت تود لو تتحدث بها معها، وأشياء كثيرة كانت تود لو تسألها عنها. ولكن والدتها كانت قد توفيت فجأة وبشكل لم يكن متوقعاً، وحتى قبل أن تدرك يونا تماماً ما حدث، كانت قد أصبحت في المعهد في فلورنسا حيث كانت تختلط يومياً بأناس أكثر مما كانت تعرف طوال حياتها.

ولأنها كانت تهتم بكل ما كان يتعلق بوالدتها، فقد درست التاريخ والأدب الانكليزي باجتهاد فاق كل دراساتها للمواضيع الأخرى.

كما أنها صادقت الفتيات الانكليزيات لأنهن من أسر ارستقراطية، فقد تعلمت الكثير من طرق الحياة الانكليزية وقارنتها بطرق الحياة في فرنسا وايطاليا.

كانت يونا في معاشرتها للآخرين، غاية في الفطنة والإدراك، وكان يتراءى للمديرة كلما نظرت إليها أن ثمة حساسية غير عادية في فتاة صغيرة السن مثلها.

www.rewayti.net

«إنني لأتساءل عما عسى أن يحدث لها.» كان هذا ما تفكر فيه المديرة، لتقول بعد ذلك بصوت مرتفع: «أرجو أن تكتبي إليّ يا يونا وتخبرينني بالضبط عن كل ما تفعلينه، تذكري أنني سأكون دوماً صديقتك وعلى استعداد لمساعدتك قدر الامكان.»

أجابت يونا: «إنك بالغة الرقة والشهامة يا سيدتي. وأحب أن أشكرك لكل ما تعلمته منك، ولكل عون قدمته إليّ منذ مجيئي إلى هنا.»

فسألتها: «عون؟»

قالت يونا ببساطة: «لقد أدركت عند مجيئي مبلغ جهلي بأمور كثيرة وأنا لا أعني العلم فقط.»

فقالت المديرة: «أعلم ما تعنيه يا عزيزتي.»

تابعت يونا تقول: «طالما كنت أفكر بمبلغ حسن حظي الذي جعل من والدتي تختار لي هذه المدرسة بالذات لأتعلم فيها تاركة المال الكافي لذلك.»

وتنهدت، ثم تابعت تقول: «أحب أن أفكر في أنني لم أضيّع أي جزء من وقتي، ولكنني أدرك تماماً أن هناك الكثير ما زال عليّ أن أتعلمه، وأحياناً أشعر بأنني في منتهى الجهل.»

ابتسمت المديرة وقالت: «بإمكاني أن اؤكد لك يا عزيزتي أنك تعلمت وفكرت أكثر بكثير من أغلب الفتيات اللاتي تعلمن في معهدي، ولكنني مسرورة لادراكك أنه ما زال هناك الكثير لتتعلميه. إن أكثر الفتيات اللاتي في سنك لا يفكرن في شيء سوى الزواج.»

قالت يونا: «ينبغي عليّ أن أفكر في الزواج يوماً ما، ولكنني أرجو الآن أن أتمكن من مساعدة والدي.»

فقالت المديرة بصوت متردد: «وهذا ما أرجوه أنا ايضاً.»

وعندما غادرت يونا المكتب بعد أن كررت شكرها وقد بدا الحزن على وجهها واضحاً وهي تودعها، بينما بقيت المديرة بعض الوقت دون حراك.

لقد كانت تتساءل عما إذا كان عليها أن تقوم بشيء أكثر من ذلك تجاه هذه الفتاة غير العادية.

كانت وحدها التي تعلم، نتيجة خبرتها الطويلة مع التلميذات، بأن يونا رغم القدر الكبير من العلم الذي حصلت عليه، كانت على جهل تام بالعالم الخارجي. وكيف لا تكون كذلك وهي التي كانت في الخامسة عشرة فقط عندما جاءت إلى المعهد، وذلك بعد ان قضت حياة منعزلة تماماً، كما سبق وتكهنت المديرة، لتمضي بعد ذلك ثلاث سنوات كاملة بين أسوار المعهد هذا.

ولكنها كانت سنوات، حسب رأي المديرة، بالغة الأهمية بالنسبة لفتاة تنتقل من مرحلة الطفولة.

وعادت تتساءل عما تراه سيحل بها. ثم أخذت تدعو من صميم قلبها أن تعثر يونا على رجل يتزوجها، ولو لإبعادها فقط عن حيّ مونتمارتر.

* * *

توقف القطار على رصيف المحطة فاندفع الحمالون إلى العربات وهم يصيحون: «حمّال... حمّال.»

نظرت يونا من النافذة إلى جموع الناس على الرصيف، ثم أخذت تتساءل كيف بإمكانها أن ترى والدها من بينهم.

www.rewayti.net

عندما جمعت المربية الفتيات المسؤولة عنهن وقد بان على ملامحها القلق، قبّلت يونا رفيقتيها مودعة وهي تعدهما بأنها لن تنساهما.

قالت ماري سيليست: «يجب أن تكتبي إلينا لتخبرينا عن أحوالك، وقد نلتقي يوماً ما، إذا سمح لنا والدي بالحضور إلى باريس. ما أجمل أن نزورك في حي مونتمارتر رغم أن والدتي تقول انه مكان لا ينبغي أن تذهب إليه البنات المهذبات.»

نادتها المربية وهي تتجه للنزول إلى الرصيف: «هيا تعالي، يا ماري سيليست.»

لكن ماري سيليست عبست في وجهها، ثم عادت تقبل يونا، وهي تقول لها: «انتبهي إلى نفسك، أنا واثقة من أنك ستمضين وقتاً ساراً مع كل أولئك الفنانين الذين سيرسمون صوراً لك.» ونطقت بكلماتها الأخيرة بينما كانت تقفز إلى الرصيف.

وعندما أصبحت يونا وحيدة، حملت حقيبة يدها ومعطفها والذي لم تتمكن من ارتدائه في مثل هذا الجوّ الحار. كانت الجموع تتجه نحو المخرج من الرصيف، فذهبت يونا معهم وهي تنظر طوال الوقت حولها باحثة عن والدها.

كان طويل القامة مميّز الشكل ويبدو انكليزياً صرفاً، رغم ارتدائه أحياناً ملابس غريبة غير عادية كعادة الفنانين.

كادت أن تصل إلى نهاية الرصيف عندما رأت عامل القطار ينزل حقيبتها إلى الأرض.

وسرعان ما وجدت حمالاً ليحملها وهو يسألها: «هل هناك من ينتظرك، يا آنسة؟»

قال ذلك بشيء من الإلفة أدركت هي بأنها لم تكن صادرة عن وقاحة منه بل لأنها تبدو صغيرة السن إلى حد أن الغرباء يظنونها فتاة صغيرة.

أجابته: «أظن ان والدي سيكون عند الحاجز.» فأومأ الحمال برأسه ومشى امامها فتبعته ولكنها لم تر أثراً لوالدها عند الحاجز. وبعد أن انتظرت عدة دقائق، ظنت بأنه قد يكون نسي موعد وصولها.

ولم يكن هذا التصرف بغريب عن والدها وهو الذي طالما قالت والدتها عنه بمزيج من الهزل واليأس: «أظن أحياناً أن رأس والدك كالغربال لا يثبت فيه شيء.»

وكان هذا صحيحاً. فلقد كان عادة يتذكر الموعد لكن في يوم مخالف. وكان إما أن ينسى ما يكون عليه أن يشتريه لهما من باريس، أو يحضر إلى البيت شيئاً مغايراً تماماً.

فقالت للحمال: «أخشى أن يكون والدي قد نسيني.»

فأجاب: «لا تقلقي يا آنسة. سأحضر لك عربة سائقها رجل طيّب يأخذك إلى حيث تشائين.»

قال ذلك بطريقة أبوية حنون جعلها تبتسم له شاكرة وهي تقول: «هذا لطف بالغ منك.»

منحته أجره فشكرها بحرارة. وعندما أعطت السائق عنوان والدها في حيّ مونتمارتر، خيّل إليها أنها ترى الدهشة في عينيه.

وعندما انطلقت الجياد مغادرة المحطة، أخذت يونا تفكر

www.rewayti.net

مسرورة في أنها اصبحت في باريس، خيّل إليها أنها لم تغب عن باريس منذ ثلاث سنوات بل العمر كله، ومع ذلك فقد بدا لها كل شيء مألوفاً وكأنها تعود إلى موطنها.

المنازل العالية الرمادية اللون، الشوارع الواسعة المزدحمة، الناس الجالسون أمام المقاهي إلى موائد صغيرة، حوانيت الحلوى، والعربات المكوّمة فوقها مختلف أنواع الفاكهة، كل ذلك كان كما تتذكره تماماً.

أخذت، والعربة تسير بها في الشارع، تشمّ رائحة القهوة التي لا يمكن أن تضاهيها رائحة القهوة في ايطاليا.

ابطأت الجياد الآن وقد بدأت بصعود التل.

ازداد تباطؤ الجياد نظراً لارتفاع التل، ورأت يونا مبلغ اختلاف مظهر الناس هنا عنه في الشوارع التي مرت بها.

كان الرجال يرتدون سترات مخملية وربطات عنق عريضة، ويسيرون بجانب نساء يرتدين ما يشبه الملابس التنكرية.

كانوا يبدون في منتهى الغرابة، وحاولت التكهن بمن عسى أن يكون منهم الخادم والخادمة، والغسّالات، وأصحاب الحوانيت والفنانين الفقراء.

ورأت رسامين يضعون تخطيطاتهم على الأرصفة ويحتشدون في ساحة تظللها أشجار الكستناء المزهرة. كان المنظر هذا من الجمال، هذا إلى الجوّ البهيج المحدق به، ما جعل يونا تحبس أنفاسها.

كان كل شيء يبعث في النفس الفرح أكثر مما كانت تتصور. وتملكها الرجاء في أن يسمح لها والدها بالتنزه

في الأنحاء للتفرج على الناس، وقد يكون على معرفة ببعض هؤلاء الفنانين.

كانت من الانشغال بالنظر حولها إلى حد شعرت معه بالدهشة، حين توقفت بها العربة خارج مبنى عال كان يعوزها الطلاء بشكل هائل.

كانت باهتة اللون يحيط بها جوّ من الوحشة جعل يونا تشعر بالتوجّس والريبة.

قال الحوذي فجأة: «ها قد وصلنا يا آنسة.»

أجابت: «أشكرك.»

نزل الرجل ببطء نظراً لسنّه وبدانته، وفتح لها باب العربة، ثم وضع حقيبتها على الرصيف. وعندما نقضته أجره، سألها: «هل أدخل لك هذه الحقيبة، يا آنسة؟»

أجابت: «سيكون هذا لطف بالغ منك.»

دخلت إلى المنزل حيث رأت سلماً في ردهة ضيقة غير مؤثثة قد كسيت بالغبار والأقذار.

سألها الحوذي: «ما هو رقم شقتك يا آنسة؟»

ولأول مرة تدرك يونا أن والدها لا يملك المنزل كله، كما كانت تتصوّر، فقد كان واضحاً أنه يحتوي على عدة قاعات للرسم.

كانت على وشك القول إن ليس لديها فكرة عن ذلك، عندما رأت ثلاثة أسماء ملصقة على لوحة هناك.

شعرت بالارتياح وهي ترى بينها اسم والدها، كما أن الحوذي رأى اللوحة هو أيضاً.

قالت له: «إن والدي يسكن في الشقة رقم ثلاثة.»

فقال الرجل بلهجة مستسلمة: «إنها في الطابق العلوي.»

www.rewayti.net

رفع حقيبتها ووضعها على كتفه، ثم صعد أمامها على السلم الذي كانت درجاته الخشبية تقرقع تحت وقع اقدامهما بشكل مخيف.

وعلى الباب الأول كان مكتوباً جوليوس تورو، فاندفعت يونا نحو الباب تقرعه وقد أخذ قلبها يخفق.

عندما لم تسمع أي جواب، فتحت الباب مترددة كانت قد توقعت أن تجد المكان غريب الشكل ولكنها لم تتوقع مطلقاً شيئاً كهذه القاعة الواسعة التي أمامها، والتي كانت الفوضى تدبّ فيها بشكل غير عادي.

كان هناك أريكة وكرسيّ ومنضدة، كلها قد اختلطت بعدة حاملات ألواح الرسم، هذا إلى سلم متنقل كما كانت لوحات غير كاملة منتشرة في كل مكان.

كان على الجدران عدد من لوحات غير مؤطرة، وتناثرت على الأرض الكتب والأحذية وكذلك مظلة مفتوحة.

نظرت يونا حولها مرتبكة، بينما وضع الحوذي الحقيبة على الأرض وهو يقول بمرح: «لا بأس بالقيام بتنظيم هذا المكان، يا آنسة.»

وقبل أن تتمكن من الايجابة، كان هو قد تركها وخرج.

أخذت يونا تحملق في كل ما يحيط بها وهي تعجب من أن يتمكن أي شخص من العيش في مكان كهذا، ثم وقعت عيناها على سلم خشبي ضيق في نهاية القاعة، فتكهنت بأنه لا بد يؤدي إلى غرفة النوم.

خطر في بالها أن والدها قد يكون مريضاً، ما جعله عاجزاً عن الذهاب لاستقبالها.

وأخذت تنقل خطواتها بحذر في أرض القاعة، تدفع

بقدمها كرة، وهي تنظر إلى إناء صيني رائع قد كسر إلى جزئين مستقراً بجانب فردة حذاء قديم دون رباط.

صعدت السلم إلى حيث وجدت، كما كانت تتوقع غرفة نوم صغيرة تحتوي على أريكة واسعة جعلت بمثابة سرير، وخزانة ذات أدراج قد سبق وكسرت إحدى قوائمها ووضع مكانها كتب لتثبيتها في مكانها.

كما كانت تحتوي على عدة كراسٍ مكسورة، والجدران مزينة برسوم متألقة غريبة الشكل بمشاهد مختلفة.

ونظرت يونا إليها بعدم فهم وادراك.

فقد انتابها شعور بأنها، نظراً لعدم وجود أحد في المكان، بأنها إنما تستطلع أسرار شخص ما، فعادت تهبط السلم إلى الطابق الأسفل.

كانت هناك نافذة عريضة، أمامها حامل رسم رأت عليه صورة لم تكتمل بعد، فتوجهت نحوها لتلقي نظرة عليها.

تميّزت في الصورة عمل والدها، ولكن لا بد أنه غيّر طريقته في الرسم كثيراً وذلك منذ آخر مرة رأت فيها رسومه.

فقد كان دوماً يستعمل الألوان بشكل مختلف تماماً عن الذي يستعمله غيره من الرسامين.

فقد كان في تلاعبه بالضوء في رسومه، جمال غير عادي إذ كان يجعل رسومه تتألق بشكل يلفت النظر، بينما الخلفية باهتة.

حاولت يونا، وهي تنظر إلى هذه الصورة غير المكتملة، أن تفهم ما اراد أن يعبّر عنه من خلالها، حيث انه قال لها

www.rewayti.net

مرة: «إن الفنان الحقيقي يرسم ما يشعر به لا ما يراه بعينيه.»

لكنها لم تستطع أن تفهم من هذه الصورة شيئاً على الاطلاق. كانت خليطاً من الألوان لا شكل ولا معنى واضح لها.

وحدثت نفسها بأن على والدها أن يشرح هذا لها، حين تلتقيه. وإذا بها تسمع صوت خطوات تصعد السلم، فانتظرت وقلبها يخفق. إنها سترى والدها الآن مرة أخرى، وسيزول من نفسها ما تملكها من هواجس لرؤيتها لكل هذه الأشياء.

فتح الباب، وإذ فتحت فاها لتهتف والدي، رأت أن القادم لم يكن هو، وإنما رجلاً متوسط العمر بالغ الأناقة.

كان يضع على رأسه قبعة عالية وشبك ربطة عنقه بدبوس من اللؤلؤ، كما كانت ملابسه حديثة الطراز، ما جعله يبدو شاذاً في مثل هذا المكان الذي تدب الفوضى في كل شبر منه.

دخل الغرفة بخطوات واثقة دون أن يرى يونا التي كانت واقفة بجانب حامل الرسم.

كان، في الواقع، متجهاً إلى الناحية الأخرى، نحو صورة معلقة على الجدار تحت السلم مباشرة.

وفي منتصف الغرفة فقط، لاحظ وجود شخص آخر في القاعة فأدار رأسه ورأى يونا.

سألها القادم بصوت حاد: «من أنت؟»

أجابت بشيء من التوتر: «إنني... إنني انتظر والدي...»

«والدك؟»

«نعم، لقد طلب مني أن آتي إليه في باريس وكنت أظنه سيستقبلني في المحطة... ولكن... ربما لم أتمكن... من رؤيته.»

«هل والدك هو جوليوس تورو؟»

كان الرجل يتكلم الآن ببطء وكأنه يختار كلماته بعناية.

«نعم، انني ابنته، يونا.»

«وهل طلب منك القدوم إلى باريس؟ متى كان ذلك؟»

«منذ ثمانية... كلا، تسعة أيام وكان قد ارسل برقية إلى مدرستي في فلورنسا.»

«تسعة أيام؟ نعم... هذا ممكن.»

كان في صوته شيء ما جعلها تقول بسرعة: «هل ألمّ بوالدي... شيء ما؟ هل هو مريض؟»

توجه الرجل إليها، مستديراً حول كرسي قد تكوّم فوقه بعض الحطام.

عندما وصل إليها، عادت تسأله: «ماذا هناك؟ ما الذي حدث؟»

فقال برفق: «إنني آسف إذ أخبرك بأن والدك قد دفن أمس.»

«د... دفن؟»

لقد وجدت صعوبة في النطق بتلك الكلمة، ولكنها تابعت تقول: «ما الذي حدث؟ وكيف جرى ذلك؟»

حوّل عينيه عنها وساورها شعور بأنه لا يريد أن يخبرها بالحقيقة كاملة.

قال: «لقد سقط والدك. ويبدو أن السقطة تلك أثّرت على قلبه، لأنه، عندما رفعوه كان ميتاً.»

www.rewayti.net

لقد حدّث نفسه بأن ليس ثمة من فائدة أن يخبر هذه الصغيرة بأن والدها تدحرج من أعلى السلم إلى أسفله فكسر بذلك عنقه.

شبكت يونا يديها معاً تسأله وكأنها تحدث نفسها: «كيف يمكن... أن يحدث أمر فظيع... كهذا؟»

فقال لها مواسياً: «ربما قد كان من الأفضل له ان يموت بتلك الطريقة، لأنه لم يتألم.»

«إنني... مسرورة لذلك.»

ساد صمت قصير، ثم سألته: «هل أنت... صديق لوالدي؟»

أجاب: «إنني أعرف والدك منذ سنوات كثيرة، وكان يعتبرني صديقاً له، في الواقع إنني أنا الذي كنت أرتّب له بيع رسوماته رغم قلة ما كان يبيع.»

فهتفت تقول: «لقد عرفتك الآن، إنك السيد فيليب دوبتشيرون.»

«هذا صحيح، هل كان والدك يحدثك عني؟»

أجابت: «بل كانت والدتي هي من اعتادت أن تقول له، أخبر السيد دوبتشيرون، يا جوليوس بأنك أنهيت هذا الرسم.»

ولم تضف إلى كلامها الجملة التي كانت أمها دوماً تتبعها هذا الحديث وهي اننا بحاجة إلى المال.

فقال السيد دوبتشيرون: «عليّ أن أعترف بأنه لم يكن لديّ فكرة عن ان لديه ابنة، وخصوصاً بهذا الجمال.»

بدا على يونا الخجل لهذا المديح، بينما كان هو يحدث نفسه بأنه لم ير من قبل شيئاً بجاذبية ذلك اللون الأحمر الذي صبغ وجنتيها، وكذلك بالطريقة التي خفقت بها أهدابها الطويلة وهو ينظر إليها.

كان يشع من ملامح وجه الفتاة صفاء واضح بالغ الشفافية لم يكن قد رآه في ملامح امرأة أخرى من قبل، ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأنه لم يتعوّد رؤية تلميذات المدارس واللاتي لم يزرن مرسم جوليوس تورو بالطبع.

وفجأة، تذكر شيئاً كان قد غاب عن ذهنه، فقد جاء إلى المرسم منذ عشرة أيام، أو ربما تسعة، ليجد جوليوس تورو يقف عند الحامل وبيده فرشاة الرسم، فأدرك للتوّ بأنه لم يكن في حالة تسمح له بالرسم.

كان السيد دوبتشيرون قد سبق وباع له لوحة كان تورو قد تعهد بانجازها منذ يومين. ولهذا شعر بانزعاج بالغ إذ رآه لم يتمها بعد.

فسأله حينذاك بضيق: «ما الذي تظن نفسك فاعله، يا تورو؟ كنت قد أخبرتني بأن الصورة ستكون جاهزة هذا اليوم، فهناك شخص ينتظرها وسيغادر باريس الليلة.»

أجاب تورو بعدم اهتمام: «فليرحل إذن من دونها.»

قال دوبتشيرون: «لا شيء يزعجني أكثر من الاخلاف بالوعد، والأكثر من ذلك أنك بحاجة إلى نقود.»

قال ذلك وهو ينظر إلى قميص تورو الرث القذر وبنطلونه الملطخ بالدهان. كما كان يحتذي خفاً مقطعاً، كذلك بدا واضحاً أنه لم يحلق ذقنه منذ أيام.

لقد كان يوماً ما رجلاً وسيماً مرموقاً، ولكن الفقر دمّر شكله كليّاً.

فقال: «حسناً جداً، حيث انك لم تكمل هذه الصورة في

www.rewayti.net

الوقت المحدّد، فلن أستطيع بيعها. أرسل إليّ خبراً عندما ترغب في رؤيتي، ذلك لأنني لن أبيع لوحة أخرى لك يا تورو إلا بعد أن تفرغ منها تماماً وتصبح بين يديّ.»

فقال تورو وهو يئن: «سأنهيها، سأنهيها، إنها لن تأخذ مني سوى ساعات معدودة.»

اتجه دوبتشيرون نحو الباب وقد تملكه الاشمئزاز، وعندما وصل إليه استدار إلى تورو قائلاً: «عندما يصبح لديك لوحة جاهزة للبيع، فسأحضر إليك، وإلا الوداع.»

هبط السلم وقد تملكه الغيظ والغضب لغبائه إذ يصدّق وعد تورو له بإنجاز تلك اللوحة.

لكنه كان بالغ الدهاء والحذق في بيع ما يريده الناس، ما جعله يزداد ثراءً عاماً بعد عام.

صمته الآن جعل من يونا تشعر بعدم الارتياح. وكأنها شعرت بأن وراء ذلك شيئاً لا تعرفه، سألته بصوت خافت: «أيمكنك... أن تخبرني... أين... دفن... والدي؟»

أجاب: «نعم، بالطبع.»

أشاحت بوجهها عنه لتقف عند النافذة مولية ظهرها له فأدرك أنها تخفي بذلك دموعها.

ثم قالت: «كان والدي... نادراً ما يكتب إليّ، ولكن عندما كان يفعل... كان كلامه يبدو وكأن أحواله جيدة... لم تكن لديّ فكرة بأنه... كان... يعيش بهذا الشكل.»

فقال دون أن تثير دهشته صدمتها بمنظر المرسم هذا: «أظن المرأة التي تنظف المكان هنا قد توقفت عن المجيء بعد ان توفي.»

ساد الصمت للحظات، بعدها استدارت يونا إليه. كانت

عيناها مغرورقتين بالدمع، ولكنه استطاع أن يرى أنها تبذل جهداً شجاعاً في سبيل تمالك نفسها.

قالت: «قد يكون من الخطأ أن أوجه إليك... هذا السؤال... حالياً ولكن، هل كل ما هنا هو ملكي الآن؟»

أجاب ساخراً: «وهل تعتقدين ان ما هو موجود بذات اهمية؟» فجأة، خطرت بباله فكرة. فسألها: «لا بد أن لديك بعض النقود، أليس كذلك؟»

هزت يونا رأسها تنفي: «كلا.»

سألها: «ماذا تعنين بقولك كلا؟ لا بد أنه كان لديك، طوال تلك السنوات التي عشت فيها بعيداً عن والدك، بعض النقود لتعيشي بها أو أقارب يأخذونك إليهم.»

«لقد كنت في... مدرسة داخلية.»

«ومن دفع نفقات دراستك؟»

«والدتي... لقد تركت لي قبل أن تموت كل ما كانت تملكه، للانفاق على تعليمي.»

فكر دوبتشيرون في أن هذا كان تصرفاً حكيماً، ولولا ذلك لكان جوليوس تورو قد أنفقه على الأشياء التافهة.

«وما الذي جعلك تأتين الآن للإقامة مع والدك؟»

«كنت قد كتبت إلى والدي أخبره بأن دراستي هناك قد انتهت حيث انني بلغت الثامنة عشرة، ذلك أن أغلب الفتيات يتركن الدراسة عند بلوغهن سن السابعة عشرة. هذا إلى أن النقود قد نفدت كلها.»

فأدرك دوبيتشيرون عندئذ أن هذه الرسالة هي التي دفعت تورو إلى أن يطلب من ابنته القدوم وذلك لسبب بالغ الأنانية.

www.rewayti.net

فقال: «حسناً، ما علينا أن نتدبره هو أن عليك بعد وفاة والدك أن تذهبي إلى أقربائك في انكلترا لتعيشي معهم.»

فقالت بسرعة: «لا يمكنني... ذلك.»

«لماذا؟»

«لأنه ليس لديّ فكرة عن مكانهم، أو إذا كان لديّ أقرباء احياء، فبعد أن تزوجت والدتي من والدي، قاطعوها تماماً.»

حدّق فيليب دوبتشيرون فيها ذاهلاً وهو يسألها: «أحقاً ذلك؟ أتريدين القول انك وحيدة تماماً في هذا العالم؟»

«نعم... كما أنني لا أعرف تماماً... ما عليّ فعله.»

نظرت في أنحاء القاعة القذرة، ثم سألته: «إذا كان عليّ أن أسكن... هنا، اتظن انه بإمكاني ايجاد عملاً؟»

«تسكنين هنا وحدك؟»

أجابت: «ليس لديّ مكان آخر... أذهب إليه.»

فكرت بالفتيات اللاتي تعرفت إليهن في المدرسة، لقد ذهبن جميعاً إلى أوطانهن وأسرهن الثرية.

كانت صديقاتها يأخذنها معهن أحياناً إلى تناول الغداء خارج المدرسة عندما يأتي آباؤهن لزيارتهن، ولكن لم يحدث ابداً أن دعوها إلى بيوتهن.

بدت أمام فيليب وحيدة بائسة، لذلك قال: «لا تقلقي نفسك حالياً، سأفكر في شيء لأجلك.»

ومع ذلك كان يفكر، وهو يقول ذلك، في أنه لا بد أصابه الخبل، إذ ماذا بإمكانه أن يفعل بفتاة جاءت لتوّها من المدرسة؟

لا بد أنها تجهل تماماً ماذا ينتظرها ما دامت تظن أنه

بإمكانها العيش وحدها في مكان مثل حيّ مونتمارتر ومع هذا أن تجد عملاً.

بينما العمل الوحيد الممكن أن تجده هو... وتوقف عن التفكير.

فقد خطرت في باله فكرة... فكرة جعلته يحك ذقنه وقد ضاقت عيناه.

ثم قال لها ببطء: «اسمعي، سنتحدث في أمرك معاً. إنما لديّ موعد حالياً أريد الذهاب إليه.»

ابتسم لها مطمئناً: «سأعود، وبعد ذلك سنفكر معاً في حلّ لمشكلتك.»

خيّل إليه أن عينيها التمعتا وهي تجيبه قائلة: «هذا لطف منك... ولكن، هل أنت واثق تماماً من أن ليس في هذا ازعاج لك؟»

أجاب: «كلا، أبداً، ولكن عليّ أن أتركك الآن لأنني سآخذ تلك اللوحة من بين لوحات والدك لأعرضها على شخص كان قد سبق واشترى صورة أخرى لوالدك منذ سنة.»

رأى في عينيها سؤالاً لم تنطق به، فقال: «إن ثمنها طبعاً سيعود إليك، وذلك بعد أن احسم فيها عمولتي المعتادة.»

فقالت: «آه، أرجو أن تتمكن من بيعها، لا أريد أن أزعجك بمشاكلي، ولكن كل ما بقي في كيس نقودي هو خمسة وعشرون فرنكاً... لقد كلفتني الرحلة إلى هنا كثيراً.»

أجاب: «أنا واثق من أنها كانت كذلك، والآن عليّ أن أذهب.»

سار نحو اللوحة المعلقة على الجدار ورفعها. كانت

www.rewayti.net

تمثل احدى ازقة حيّ مونتمارتر في ضوء القمر. كانت بقع الضوء والتي كانت من مميزات رسوم والدها، تبرز بوضوح ناحية شريرة وغريبة تختلف عن نظرة أي فنان آخر.

عندما اتجه فيليب دوبتشيرون نحو الباب، نظر إليها وقد بدا عليها الضياع والتعاسة وهي تقف وحدها وسط ذلك الخليط الفظيع من النفايات والأشياء العديمة القيمة التي كان تورو قد أحاط نفسه بها، نظر وهو يفكر في أنها تبدو كلؤلؤة فوق كومة من القاذورات وما لبث أن دهش من نفسه لشعوره العاطفي هذا، ثم قال لها بحزم: «عندما أخرج، أقفلي الباب خلفي. وإياك أن تدخلي أحداً قبل عودتي، هل فهمت؟»

رأى الدهشة على وجهها وهي تسأله: «أتظن أن... هناك... من سيأتي إلى هنا؟»

كان يعلم أنه لو حدث ذلك وجاء البعض ورآها، فسيكون من الصعب إقناعهم بالخروج، لكنه قال لها: «بعد أن شاع خبر وفاة والدك، يوجد هناك دوماً أشخاص يبحثون عن أشياء يأخذونها دون حق.»

فقالت: «فهمت.»

«افعلي إذن ما أقوله لك. استريحي، وانتظري عودتي.»

«وهل... ستعود؟»

كان هذا سؤال طفلة شعرت فجأة بالخوف من أن تبقى وحدها في الظلام.

كان هذا خليقاً بأن يردّ أي شخص، مهما بلغ من دهائه واقتصاره على البحث عن المال، يرده إلى انسانيته ويشعره فجأة بالرغبة في حماية الآخرين.

فقال لها باسماً: «سأعود حتماً. وأطمئنك إلى أنني لا أخلّ بوعودي مطلقاً، كوني فقط فتاة طيبة وقومي بما أطلبه منك وبعد ذلك سيكون كل شيء على ما يرام.»

ثم ابتسم لها مطمئناً، وعندما كان يهبط السلم سمع صوت المفتاح يدار في القفل الصدىء.

* * *

وصل الدوق ولستانتن إلى منزله في باريس بمزاج متعكر.

وكان مرافقه الخاص قد أرسل برقية في اليوم السابق إلى المنزل بأن الدوق في الطريق إليهم. ورغم قصر المدة، فقد وجد كل شيء جاهزاً لاستقباله.

كان من الصعب أن يجد المرء أيّ خلل في نظام المستخدمين عند آل ولستانتن، فالأزهار تزين غرفة الاستقبال، والنظافة الفائقة جعلت المنزل بأجمعه يبدو متألقاً كالفضة التي كانت تعلو المائدة في غرفة الطعام.

وعلى كل حال، فقد تلقى الدوق تحية المشرف على المنزل بالعبوس، وكانت إجاباته مقتضبة وهو يدخل غرفة الاستقبال ليلقي بنفسه على كرسي مريح.

أسرع إليه الخادم بإبريق عصير فاكهة مبرد، وتناول الدوق الكوب بغير حماس.

كان قد ترك لندن إثر امر طارىء جعله يصدر فجأة احدى قراراته المفاجئة في حياته والتي لا يقوم بها سواه بذلك الشكل من القسوة وتجاهل مشاعر الآخرين وذلك بشكل لا يغتفر.

www.rewayti.net

أو لعله لا يغتفر بالنسبة لأيّ رجل آخر وليس للدوق، ذلك لأن الدوق ولستانتن كان من الأهمية والثراء والجاذبية بحيث لم يكن يستاء منه أحد مهما فعل.

وعلى كل حال، فقد كان واثقاً جداً من أن روز كافرشام تعض أظافرها الآن غضباً، وسيستلم غداً من البريد عدة صفحات من الاحتجاج كتبتها أثناء غضبها.

كانت السيدة روز كافرشام معروفة بسرعة الغضب والذي سرعان ما يخمد بنفس السرعة التي كان قد بدأ بها.

إنه لا يستطيع أن يتذكر الآن كيف ابتدأ خصامهما ذاك ولكنه انتهى، كالعادة، باتهامها له بأنه أكثر الرجال في العالم أنانية، لأنه لا يريد أن يتزوجها.

وكان هذا جدالاً قديماً استطاع الدوق دوماً أن يتجنب الدخول فيه بمهارة تامة وذلك في أغلب الأحيان.

لقد كان المفروض أنه، يوماً ما، سيتزوج روز عاجلاً أم آجلاً.

فقد كان عليه أن يتزوج، على كل حال، لكي يكون له الوريث لأملاك آل ولستانتن والتي كانت الأوسع في الجزر البريطانية، لكنه لم يرد الزواج الا في الوقت والمكان اللذين يختارهما وبعد أن يرى نفسه مهيئاً نفسانياً لذلك.

كان لخلافه ذاك مع روز أن ينتهي بالمصالحة والمراضاة كالعادة في مثل تلك المشادات الكلامية، ولكن روز أثناء غضبها العنيف ذلك، لم تعنّف الدوق لعدم الزواج منها، فقط ولكنها هددته أيضاً.

كان هذا شيئاً لا يستطيع احتماله من أيّ إنسان. وعندما

صرخت روز في وجهه، أدرك أنها تجاوزت حدودها هذه المرة.

خرج من منزلها وهو يشتعل غضباً، وفي طريق العودة إلى بيته في عربته التي كان يجرها حصانان متعبان، ويسوقها حوذي مرهق وبجانبه خادم يتثاءب، قرر أن يغادر لندن.

كان الدوق يملك بيوتاً في أماكن مختلفة في العالم كانت دوماً على استعداد لاستقباله.

كان لديه فيلا واسعة في جنوب فرنسا، وأخرى في طنجة، وقصر في اسكوتلندا، واستراحة للصيد في ليسستر شاير، ومنزل في ايرلندا والذي لم يذهب إليه منذ خمس سنوات.

لقد اختار الآن الذهاب إلى باريس لا لشيء إلا لأنه كان يعرف أن ذلك يزيد من غيظ روز ويثير غيرتها لما تعلمه عن جمال باريس وروعتها.

ومنذ أسابيع قلائل فقط، أخذ الأمير يغيظ روز بقوله لها: «إنني أفكر في أخذ بلايز معي عندما أذهب إلى باريس في المرة القادمة. إنني استمتع كثيراً في شقتي هناك.»

فكان أن أجابته قائلة: «إذا ذهب بلايز إلى باريس، يا سيدي، فسأذهب معه.»

ضحك الأمير كثيراً في ذلك الوقت، ولكن الدوق لم يكن في نيته مطلقاً أن يصحب معه روز إلى باريس، فقد كان يعلم أنها ستدرك بالضبط سبب اختياره الذهاب إلى هناك وهو يغادر انكلترا قبل أن يتصالحا.

كان الدوق ولستانتن رجلاً بالغ الذكاء، كانت الحياة

www.rewayti.net

أمامه سهلة مريحة وذلك بالنسبة إلى ثرائه ومركزه الاجتماعي، حتى ولو لم يكن بكل تلك الوسامة.

لقد حدّث نفسه مرة بأن الافراط في تناول نوع معينّ من الطعام، مهما كان لذيذاً، يؤدي في النهاية إلى الشعور بالملل منه.

لقد قارب الخامسة والثلاثين، وجميع أصدقائه قد سبق وخضعوا لضغوط والديهم، بكل خنوع وتزوجوا.

ها هو الآن يحدث نفسه بأنه سيتمتع بالاقامة في باريس من دون ذلك الحشد من الأتباع الذين يلازمونه فيأكلون على مائدته متوقعين منه استضافتهم في منزله كما عودهم حيثما كان.

عندما دخل سكرتيره الصالون، بادره قائلاً: «إنك تدرك تماماً يا بومونت أنني لا أريد استضافة أحد ولا أيّة ترتيبات اجتماعية بشأني.»

أجاب بومونت: «طبعاً يا سيدي.»

ولم يكن هذا يقوم فقط بتنظيم أمور مستخدمي منزل الدوق، وإنما هو صديق له منذ سنوات كثيرة.

قال الدوق الآن بشيء من الغضب: «تباً لهذا، يا بومونت إنني أعلم أنك تظن بأن مزاجي السيء هذا لن يدوم أكثر من أربع وعشرين ساعة، ولكنك مخطيء.»

فأجاب بومونت: «أرجو أن أكون كذلك.»

سأله بفضول: «ولما تقول ذلك؟»

«لأنني أظن أن ما تحتاجه حالياً هو تغيير البيئة فقط.»

«وأنت تظن أن باريس ستكفل لي ذلك؟»

«هذا إذا لم يزدحم حولك المجموعة المعتادة التي تردد خلفك كل ما تقوله، وتفكر في كل ما تفكر فيه.»

ضحك الدوق من كل قلبه وذلك لأول مرة منذ غادر لندن. وقال: «إنني وظفتك عندي بصفة سكرتير وليس طبيباً، ولكن ماذا تصف لي؟»

«أتصور أن شيئاً من مطعم الطاحونة الحمراء، وقليلاً من مسرح المتنوعات، وطبعاً، صوتاً خلاباً رقيقاً والأفضل أن يكون ذا لكنة فرنسية، ليخبرك كم أنت رائع.»

ضحك الدوق من جديد، ثم قال: «إنك مرفوض من عملك لا أستطيع أن أستخدم عندي من لا يعاملني باحترام.»

فقال السيد بومونت: «إنني أحترمك لدرجة تكفي لأن أتمنى لك السعادة.»

سأله الدوق: «وما هي السعادة؟»

أجاب بومونت: «أظن أن كلا منا يمكنه أن يجيب على هذا السؤال بالنسبة إلى نفسه، ولكن بإمكاني أن أقول لك أن هذا شيء لا يحتمل السخرية.»

«وهل تراني ساخراً؟»

أجاب بومونت: «إنني ألاحظ أنك تزداد سخرية يوماً بعد يوم وذلك في السنوات الخمس المنصرمة. ألاحظكم أصبحت ايامك مملة، كما لاحظت أنه لم يعد يدخل السرور إلى نفسك شيء إلا جيادك على الأغلب، وأظن هذا شيء يؤسف له.»

فقال الدوق بحسرة: «هذا كلام صحيح حقاً.»

أجاب بومونت: «هذا شيء كنت أريد مصارحتك به منذ وقت طويل. وقد تكرهني لقولي هذا، وهو أنك تضيّع حياتك سدى.»

www.rewayti.net

اجفل الدوق واستقام في كرسيه وسأل: «هل تعني ذلك حقاً؟»

«ما كنت لأقوله لو لم أكن أعنيه.»

سكت الدوق للحظات ثم قال: «أظنني، من نواح مختلفة، قد عرفتك أكثر من أيّ شخص آخر طوال حياتي، لم أكن منسجماً مع والدي، وكان لديّ عدداً كبيراً من الأصدقاء، ولكن ليس لديّ مع أيّ منهم صداقة حميمة، فأنت الوحيد الذي أصارحه بالحقيقة وأتوقع منه أن يصدقني القول.»

فقال بومونت: «أشكرك يا سيدي، إنني أكبرك بخمسة سنوات، ولكن أظنني أستمتع، اجمالاً، بحياتي أكثر منك بمقدار كبير، هذا رغم كل أملاكك والمزايا التي نادراً ما تضعها في اعتبارك.»

سأله الدوق بفضول: «وما هي تلك المزايا؟»

أجاب: «قبل كل شيء، ذهنك الوقاد.»

وقف الدوق وسار نحو النافذة حيث أخذ ينظر منها إلى الحديقة الرائعة التنسيق القائمة خلف المنزل في شارع فوبورغ.

قال بعد لحظة: «بالنسبة إلى الذهن، أتراك تستعمله حقاً أو هل تحتاجه لتحصيل المال؟ إن لديّ كل ما أريده من المال. فبماذا يفيدني إذن عدا ان يجعلني قلقاً غير راض.»

قال بومونت: «هذا أكثر الكلام الذي سمعته منك تشجيعاً.»

فسأله الدوق: «ما الذي تعنيه بذلك؟»

«ألا تتذكر ما قاله نابوليون عن عدم الرضى الرائع البنّاء؟ هذا ما نحتاجه جميعاً... عدم الرضى، بالنسبة للأحوال غير المنتظمة، ومع الناس الذين هم ليسوا حسب ما نريدهم أن يكونوا، ثم مع نفسك لأنك لا تستطيع بلوغ أسمى طموحاتك.»

هتف الدوق: «ليس لديّ فكرة عن شعورك هذا. لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟»

ابتسم بومونت وقال: «كنت أفكر في ذلك، ولكن لم تسنح لي الفرصة لمصارحتك به، كما أنك لم تسألني.»

نظر إلى الدوق بعينين مليئتين بالتفهم: «يتملكني شعور أرجو ألا يكون خاطئاً، وهو أنك قد وصلت إلى مفترق الطرق في حياتك، ويبقى عليك أنت أن تختار الطريق الذي ستسلكه.»

فقال الدوق: «يبدو هذا أمر غريب نوعاً ما. كل ما في الأمر هو أنه ليس لديّ أية فكرة عن أي طريق عليّ أن اسلكه، أما أن أسلك يميناً أو شمالاً، فهذا لا يبدو مهماً.»

أجاب بومونت: «أشك في ذلك، ففي السنوات المقبلة ستنظر خلفك إلى هذه اللحظة وتتذكر ما كنت قد أخبرتك بأنك وصلت إلى مفترق طرق.»

فقال الدوق: «حسناً، لقد فكرت حقاً في أنني كنت أقوم بشيء غير عادي في حضوري إلى باريس بهذه السرعة، ولكن لم يخطر ببالي بأنني سأستمع منك إلى هذه العظة.»

قال بومونت: «يمكنك تجاهلها متى شئت، وأظن أن هذا ما ستفعله بالضبط.»

www.rewayti.net

فصرخ الدوق به: «ابتعد عني. ابتعد ودعني مع مزاجي السيء وكآبتي، إنك تجعل الأمور أسوأ. أسوأ بكثير مما كنت أتصورها.»

قال بومونت: «إنني مسرور لهذا، والآن، هل تحب أن تخبرني في أي مسرح تريدني أن أحجز لك، وأين تحب أن تتناول عشاءك هذه الليلة؟»

وما أن أنهى كلامه، حتى فتح الباب احد الخدم، معلناً: «السيد فيليب دوبتشيرون، يا سيادة الدوق.»

الفصل الثاني

حالما دخل فيليب دوبتشيرون الغرفة، خرج بومونت منها.

لقد أدرك أنه لم يكن لديه الوقت الكافي لكي يخبر الخدم بتعليمات الدوق بألا يدخلوا إليه أحداً، ما جعل هذا الزائر يقتحم عليه عزلته.

كان يكره دوبتشيرون ويراه مجرد طفيلي، مع أنه حدّث نفسه بأن ثمة عذراً لبائع فرنسي لديه شيء يبيعه.

كان السيد بومونت شديد الاعجاب بمزايا الدوق الرائعة، وكان يختلف عن كل من يحيط به، بأنه لم يكن يؤثر عليه ثراؤه الطائل ومركزه.

وفي الواقع، كان قد عرض عليه، رغم أن الدوق لم يكن له علم بذلك، عدة وظائف بالغة الأهمية في المدينة وذلك بعد أن أصبح أمين سر الدوق وكاتم أسراره.

كان سيحصل من ذلك على نقود أكثر بكثير من الأجر الذي يتقاضاه من الدوق، كما كان ممكناً أن يصل به إلى عضوية البرلمان والتي كان مناسباً لها تماماً.

لكنه آثر أن يبقى مع الدوق لأنه كان يعلم بأنه إذا لم يكن بجانبه، فإن المحيطين به من المتملقين الذين يبذلون وسعهم في سبيل افساده بصفته وحيداً، أولئك سيخلو لهم المكان لما يريدون.

كان السيد بومونت رجلاً ذا قيم رفيعة فقد نشأ في أسرة تقدم الواجب على اي شيء آخر.

www.rewayti.com/vb/ بلا عنوان

www.rewayti.net

كان قد قرر منذ وقت طويل بأن واجبه يكمن في رعاية الدوق ولستانتن، وإنقاذه من نفسه إذا أمكنه ذلك.

لم يكن مدعياً التقوى بالنسبة لطريقة الدوق في الحياة.

لكن الدوق لم يعد الآن شاباً فتياً كما كان حين التحق السيد بومونت بخدمته، فهو يدنو الآن من الخامسة والثلاثين مقترباً من قمة النضج في حياته.

كان السيد بومونت يعلم أكثر من أي شخص آخر انه من الضروري للدوق أن يتزوج، بالمرأة المناسبة.

ولهذا شعر بسرور خفي حين دفعت حدة طباع السيدة روز بالدوق إلى الذهاب بسرعة إلى باريس هرباً منها.

سار نحو مكتبه والذي كان في غرفة مريحة للغاية تقوم في الطابق الارضي.

من هنا كان يدير المنزل بكل نظام وتدبير، بحيث أن الدوق لم تكن لديه فكرة عما كان يقوم به في سبيل راحته.

جلس السيد بومونت خلف مكتبه وهو يتساءل كم سيمضي من الوقت قبل أن يرسل إليه الدوق بتفحص اللوحة.

كان قد سأله قبل ذلك: «كيف علمت بأنني هنا؟»

وذلك حين كان دوبتشيرون يتقدم إليه بابتسامة متوددة إشارة إلى أنه كان يتوقع الحصول على صفقة طيبة.

أجاب: «قرأت ذلك في نشرة الظهيرة من صحيفة لوجور.»

بان الضيق على الدوق وقال: «دوماً كان الشك يساورني بأن احد الخدم هنا يعطي عني المعلومات للصحف. أما الآن

فقد أصبحت واثقاً من ذلك. لم يعلم أحد بقدومي إلى باريس حتى هذا الصباح.»

فقال فيليب دوبتشيرون بسرعة: «من دواعي سروري أن أرى سيادتك. ولدي شيء أرجو أن يعجبك.»

فهتف الدوق: «لقد تكهنت بذلك. ما هو؟»

«آخر لوحة رسمها جوليوس تورو قبل أن يموت.»

ولم يكن هذا حقيقي، حيث أن الصورة كانت قد رسمت منذ سنتين تقريباً. ولكن دوبتشيرون نجح في إحداث التأثير الذي أراده على الدوق الذي هتف قائلاً: «مات؟ ليس لدي فكرة عن موته.»

«لقد مات منذ أسبوع.»

كان دوبتشيرون أثناء حديثه يفك اللفافة من حول الصورة التي أحضرها من مرسم جوليوس تورو.

وعندما رفعها بين يديه ليعرضها امام الدوق، رأى أنها كانت في الحقيقة أفضل صورة رآها.

من الغريب أنه لم يستطع أن يجد لها شارياً رغم محاولته مع عدة أميركيين وإيطاليين.

وضعها على أريكة مواجهة للضوء، بينما وقف الدوق ليتفحصها، ملاحظاً التأثير الغريب للضوء في ذلك الشارع الحقير نوعاً ما.

قال وكأنه يحدث نفسه: «لا أدري ما هو. ولكن لرسوم تورو تأثيراً غريباً علي. إنها تجعلني أشعر وكأنها تخبرني بشيء ما، ويا ليتني أستطيع إدراك كنهه.»

فلم يجب دوبتشيرون.

كان من المهارة في عمله بحيث لم يكن يحب فرض آرائه على زبائنه ما عدا، طبعاً، ما يتعلق بالثمن.

www.rewayti.net

«كم تطلب ثمناً لها؟»

كان سؤالاً تقليدياً وجّهه الدوق إليه بذهن غائب وكأنه كان يفكر في شيء آخر.

نطق دوبتشيرون برقم هو ضعف ما كان يتوقع الحصول عليه، ولم يظهر على الدوق أي من القبول أو الرفض، وإنما استمر في متابعة النظر إلى الصورة.

عندما أرغم على تحويل انتباهه عنها، سأله: «ما هي آخر الأمور الهامة في باريس؟ هل ثمة وجوه جديدة في المسرح؟»

أجاب دوبتشيرون: «قد يعجبك التعرف إلى ابنة الرسام تورو.»

فهتف الدوق: «ابنته؟ أهي فنانة كوالدها؟»

أجاب دوبتشيرون: «كلا، إنها صغيرة السن جداً، وبريئة، وقد وصلت لتوها إلى باريس حيث وجدت نفسها وحيدة وغريبة دون مال.»

سأله الدوق: «أتراك تطلب مني أن أكون محسناً؟ أظن ما سأدفعه لك ثمناً لهذه الصورة سيكفيها أسبوعاً أو نحوه.»

قال دوبتشيرون: «بل أنا أرى أنني بتقديمي إليك مثل هذه الفتاة إنما أقدم لك الخيار في أن تسلك طريق جديد.»

وحدث نفسه بأنه أوضح الوضع للدوق بمهارة تامة دون أن يدرك بأن هذا الأخير أخذ يفكر بالذي حدثه بومونت به منذ قليل، حين قال له إنه يقف في مفترق طرق.

فقال: «ظننت أنك تقدم إلي تحدياً يا دوبتشيرون، ولكنني أرى بدلاً من ذلك، أحجية علي أن أحلها.»

أجاب الرجل بسرعة: «إن الخيار هو لك. فكما قلت سيدي، ثمن لوحة والدها سيساعدها في وضعها، هذا بالنسبة إلى الآنسة تورو، ولكنها من البراءة بحيث لا يمكن تركها وحيدة في باريس.»

قال الدوق: «إنني واثق من أنك تحاول اقناعي، ولكن يظهر أنك نسيت تجربتي السابقة معك إزاء مفهومك عن البراءة. ألا تذكر ميمي فينون؟»

ضحك فيليب دوبتشيرون وقال: «طبعاً يا سيدي. إنني أعترف بأنه، في ذلك الوقت، خدعتني ممثلة صغيرة غاية في المكر والخبرة. ولكن عليك أن تعترف بأن لدي عذري في ذلك. فقد كانت تبدو بريئة بقدر ما كانت تدعيه.»

قال الدوق: «لقد كلفتني مبلغاً من المال جعلت حتى بومونت يشهق. ولكن هذا كان درساً مفيداً يستحق ذلك.»

«وماذا كان ذلك الدرس؟»

«هو ألا يثق المرء بفتاة تقول إنها لا تملك قرشاً في محفظتها وليس لديها مكان لتبيت فيه الليل.»

ألقى فيليب دوبتشيرون بذراعيه باستسلام وهو يقول: «حسناً جداً يا سيدي. لقد انتصرت. هل لي أن أخبر ايفيت جوايان بأنك ستخرج معها إلى العشاء؟»

فقال الدوق: «أظن انه علي الوثوق بحكمك. فقد كنت خذلتني مرة واحدة، يا دوبتشيرون وعلي أن أكون عادلاً لأقول بأن ميمي فينون لم تكن فاشلة تماماً. إنما فقط عندما فتحت الطرد لم أجد بداخله ما كنت أتوقع.»

فألقى دوبتشيرون برأسه إلى الخلف وهو ينفجر ضاحكاً ويهتف: «إنها صياغة جيدة جداً، يا سيدي الدوق.

www.rewayti.net

«كم تطلب ثمناً لها؟»

كان سؤالاً تقليدياً وجّهه الدوق إليه بذهن غائب وكأنه كان يفكر في شيء آخر.

نطق دوبتشيرون برقم هو ضعف ما كان يتوقع الحصول عليه، ولم يظهر على الدوق أي من القبول أو الرفض، وإنما استمر في متابعة النظر إلى الصورة.

عندما أرغم على تحويل انتباهه عنها، سأله: «ما هي آخر الأمور الهامة في باريس؟ هل ثمة وجوه جديدة في المسرح؟»

أجاب دوبتشيرون: «قد يعجبك التعرف إلى ابنة الرسام تورو.»

فهتف الدوق: «ابنته؟ أهي فنانة كوالدها؟»

أجاب دوبتشيرون: «كلا، إنها صغيرة السن جداً، وبريئة، وقد وصلت لتوها إلى باريس حيث وجدت نفسها وحيدة وغريبة دون مال.»

سأله الدوق: «أتراك تطلب مني أن أكون محسناً؟ أظن ما سأدفعه لك ثمناً لهذه الصورة سيكفيها أسبوعاً أو نحوه.»

قال دوبتشيرون: «بل أنا أرى أنني بتقديمي إليك مثل هذه الفتاة إنما أقدم لك الخيار في أن تسلك طريق جديد.»

وحدث نفسه بأنه أوضح الوضع للدوق بمهارة تامة دون أن يدرك بأن هذا الأخير أخذ يفكر بالذي حدثه بومونت به منذ قليل، حين قال له إنه يقف في مفترق طرق.

فقال: «ظننت أنك تقدم إلي تحدياً يا دوبتشيرون، ولكنني أرى بدلاً من ذلك، أحجية علي أن أحلها.»

أجاب الرجل بسرعة: «إن الخيار هو لك. فكما قلت سيدي، ثمن لوحة والدها سيساعدها في وضعها، هذا بالنسبة إلى الآنسة تورو، ولكنها من البراءة بحيث لا يمكن تركها وحيدة في باريس.»

قال الدوق: «إنني واثق من أنك تحاول اقناعي، ولكن يظهر أنك نسيت تجربتي السابقة معك إزاء مفهومك عن البراءة. ألا تذكر ميمي فينون؟»

ضحك فيليب دوبتشيرون وقال: «طبعاً يا سيدي. إنني أعترف بأنه، في ذلك الوقت، خدعتني ممثلة صغيرة غاية في المكر والخبرة. ولكن عليك أن تعترف بأن لدي عذري في ذلك. فقد كانت تبدو بريئة بقدر ما كانت تدعيه.»

قال الدوق: «لقد كلفتني مبلغاً من المال جعلت حتى بومونت يشهق. ولكن هذا كان درساً مفيداً يستحق ذلك.»

«وماذا كان ذلك الدرس؟»

«هو ألا يثق المرء بفتاة تقول إنها لا تملك قرشاً في محفظتها وليس لديها مكان لتبيت فيه الليل.»

ألقى فيليب دوبتشيرون بذراعيه باستسلام وهو يقول: «حسناً جداً يا سيدي. لقد انتصرت. هل لي أن أخبر ايفيت جوايان بأنك ستخرج معها إلى العشاء؟»

فقال الدوق: «أظن انه علي الوثوق بحكمك. فقد كنت خذلتني مرة واحدة، يا دوبتشيرون وعلي أن أكون عادلاً لأقول بأن ميمي فينون لم تكن فاشلة تماماً. إنما فقط عندما فتحت الطرد لم أجد بداخله ما كنت أتوقع.»

فألقى دوبتشيرون برأسه إلى الخلف وهو ينفجر ضاحكاً ويهتف: «إنها صياغة جيدة جداً، يا سيدي الدوق.

www.rewayti.net

ليس غريباً أن يصفوك بأنك أذكى رجل انكليزي وطأت قدميه باريس.»

كان هذا تملق زائد عن الحد تقبله الدوق وكأنه من حقه.

عاد فيليب دوبتشيرون يلقي على اللوحة المسندة على الأريكة نظرة طويلة ما جعل الدوق ينتبه إلى ما هو منتظر منه، فقال له: «عندما تخرج، توقف عند مكتب السيد بومونت وأطلب منه شيكاً بثمن اللوحة.»

أجاب دوبتشيرون: «شكراً يا سيدي، لقد كنت أتساءل لتوي عما إذا كان تورو قد ترك خلفه صوراً أخرى في المرسم قد تحب أن رؤيتها.»

أجاب الدوق: «ولما لا؟ إنني أحب أعمال تورو، ومن المؤسف أنه توفي. لا أظنه كان كبير السن.»

«حوالي الخامسة والاربعين، يا سيدي.»

وأثناء قوله هذا، كان يفكر في أنه لو عاش تورو، لما لقي انتاجه الأخير من يدفع فيه قرشاً واحداً.

لكنه في نفس الوقت كان يفكر فيما لو كان ثمة لوحات باقية من أعمال تورو القديمة لم ينتبه إليها.

وهكذا قرر أن يسرع بالعودة إلى المرسم ليلقي نظرة على اللوحات غير المكتملة والتي كانت مكومة على الأرض، وقد يكون هناك البعض في غرفة النوم أو سبق وأخفيت في ذلك الحجر القذر الذي كان تورو يدعوه مطبخاً.

قال: «سآتي لزيارتك غداً يا سيدي، ولكن هل لي أن أتمنى لك الآن سهرة سارة مع ايفيت؟ إنني سأترك لك عنوانها في مكتب السيد بومونت.»

كانت يد دوبتشيرون قد أصبحت على مقبض الباب عندما

قال الدوق والذي كان ما يزال يحدق في اللوحة الملقاة على الأريكة، قال له: «انتظر.»

توقف الرجل الفرنسي، والتفت إليه متردداً.

فقال الدوق: «لدي فكرة. لماذا علي أن أتعرف إلى الآنسة ايفيت بهذا الشكل دون أي تمهيد لذلك؟»

سأله دوبتشيرون بحيرة: «تمهيد، يا سيدي؟»

فقال الدوق: «لماذا لا تتناول معي العشاء، يا دوبتشيرون، وتحضر معك إبنة تورو فتكون الشخص الرابع على المائدة.»

ومضت لحظات منع فيها الذهول دوبتشيرون من أن يجيب. طوال السنوات التي عرف فيها الدوق، لم يدعه ابداً إلى تناول العشاء معه. وفي الواقع لم تكن علاقتهما لتخرج عن نطاق العمل.

إنه يشعر الآن بأنه لم يفهم غرض الدوق من ذلك، ولكن قبل أن يستطيع النطق، تابع الدوق يقول: «إننا سنتناول العشاء هنا. وأرى أن تحضرهما إلى منزلي في الساعة الثامنة.»

فقال الرجل الفرنسي: «دعوتك هذه تشرفني، يا سيدي الدوق. وأعدك بأن أول سهراتك في باريس ستكون غير عادية.»

ولم ينتظر جواب الدوق بل خرج من الغرفة وعلى وجهه ابتسامة أغاظت السيد بومونت حين رآها.

* * *

ابتدأت الشمس بالغروب فأخذت الظلال، في ذلك المرسم،

www.rewayti.net

تعتم بينما كانت يونا ما تزال في انتظار عودة السيد فيليب دوبتشيرون.

عند خروجه، حاولت أن تقوم بشيء من تنظيم هذه الفوضى التي جعلت التنقل في أنحاء القاعة الفسيحة مستحيلاً. ولكنها ما لبثت أن تخلت عن ذلك.

كان كل شيء قذراً متربا، ومع أنها شعرت بالتعب البالغ للجهد الذي بذلته، إلا أن ذلك لم يغير شيئاً من الفوضى تلك، بشكل عام.

وجدت ما كان مفروضاً ان يكون مطبخاً حيث غسلت يديها في الحوض، ولكن القذارة اثارت ذعرها.

أما النافذة فكانت قذرة لا تسرب سوى القليل من الضوء، ما جعل من المستحيل عليها تقريباً أن ترى ماذا تفعل.

وعندما عادت إلى المرسم، عادت تنظر إلى اللوحة التي كان والدها يرسمها قبل وفاته، تحاول فهمها.

ومع أنها كانت مغرمة برسومه في الماضي، إلا أن هذه كانت غير مفهومة إلى درجة أثارت في نفسها شعوراً مزعجاً بأن ذهنه لا بد كان مشوشاً مضطرباً أثناء رسمها.

تراءى لها أنه كان عليها أن تشعر بحزن بالغ لموت والدها.

ولكنها، بشكل ما، وهي تجلس في ذلك المرسم الذي يثير الذعر والاشمئزاز، شعرت بأنها فقدت شخصاً لا تعرفه... شخصاً لم يكن ذلك الوالد الوسيم الرائع الذي أحبته حين كانت والدتها حية.

وأخذت تتساءل يونا الآن عن نوع أولئك الأصدقاء الذين كان عرفهم حين انتقاله للعيش في حي مونتمارتر.

أصدقاء ربما كانوا هم المسؤولين عن تلك الألوان الغامضة الدائرية الملتوية فوق قماش اللوحة والتي لا تحمل أي معنى أو أي انسجام.

كان من المستحيل ألا تفكر في وضعها حالياً، وبالذي عليها فعله.

فإذا تمكن السيد دوبتشيرون من بيع اللوحة، فسيكون لديها بعض المال على الأقل ما يمنحها بعض الوقت للبحث حولها عن مكان تسكن فيه والحصول على عمل ما.

كان من الغريب أنها، رغم السنوات التي أمضتها في التعلم، لم تكن تملك موهبة تعيش منها.

قالت تحدث نفسها: «يمكنني أن أعزف قليلاً على البيانو، كما ان بإمكاني الرسم ولكن بشكل هواية فقط.»

«ويمكنني الخياطة، وهذا كل شيء. علي أن أفكر في شيء ما... يجب ذلك.»

كانت تتكلم بصوت مرتفع وقد تملكها اليأس. وتراءى لها ان صدى صوتها يتجاوب في أنحاء المرسم الفسيح.

وأخيراً قررت أنها ربما قد تحصل على عمل في مدرسة ما، كأن تعلم الانكليزية أو حتى ترعى الأولاد الصغار.

ولكنها عندما فكرت بهذا الأمر، بدا لها انه معقول جداً، وتذكرت كم تبدو صغيرة السن، وكم أنها صغيرة السن فعلاً.

كانت كل معلمات مدرستها يعلمن مواضيع خاصة وكن متوسطات السن، وكانت المدرسة تفضلهن لأنهن يملكن سلطة على التلميذات، ما يجعلهن يخضعن للنظام والاجتهاد في الدراسة.

www.rewayti.net

وقفت لترى إن كانت هناك مرآة ترى فيها نفسها، ذلك أنها لم تنظر إلى نفسها في مرآة منذ ان سرحت شعرها في القطار، وكان ذلك لكي تتأكد من أنها ستبدو جميلة في نظر والدها، لأنها كانت تريد أن يكون لديها شخصية قوية مسيطرة تجعل الآباء ومعلمات المدرسة يثقون بها إذ يسلمونها أولادهم.

وكانت المرآة الوحيدة في المكان موجودة في غرفة نوم والدها حيث وضعت على منضدة هناك، وكان وسطها مهشماً.

أطالت النظر إلى صورتها في المرآة، ثم خلعت قبعتها وهي تتساءل عما إذا كانت هذه القبعة المستقرة على مؤخرة رأسها هي التي تجعلها تبدو صغيرة السن بالغة الخوف.

عادت الى الطابق الأسفل بينما أخذت تصوراتها تزيد من مخاوفها.

ربما قد نسيها السيد فيليب دوبتشيرون! ربما لن يعود أبداً! وإلى متى ستبقى هنا في انتظاره؟ وإذا هي قررت مغادرة المرسم، فإلى أين ستذهب؟

وابتدأت تشعر بالجوع، ولكنه كان قد طلب منها عدم مغادرة المرسم أو ان تسمح لأحد بالدخول.

فهتفت بصوت مسموع: «ماذا أفعل؟»

بدا وكأن هذا السؤال تصرخ به إلى الصور التي على الجدران. وإذ وجدت أنها تزيد خوفها، سارت إلى النافذة حيث رفعت عينيها إلى السماء وأخذت بالدعاء.

فكرت في والدتها، ما جعل عينيها تغرورقان بالدموع.

«أواه، يا والدتي، ساعديني. ماذا أفعل؟ وإلى أين أذهب؟ ما أشد وحدتي.»

وما أن انتهت من مناجاة والدتها، حتى سمعت وقع خطوات تصعد السلم، فأخذت تمسح دموعها بسرعة.

كانت تأمل في أن يكون القادم هو السيد دوبتشيرون، ولكن إذا كان رجلاً آخر ووجد ان الباب مقفلاً، فقد يحطم القفل.

وإذا بها تسمع قرعاً على الباب وصوتاً يقول: «هل أنت هنا يا آنسة؟ انني فيليب دوبتشيرون.»

اسرعت نحو الباب تفتحه وهي تطلق صرخة خافتة تنبىء عن سرورها بمجيئه.

«آه، يا سيدي، هل عدت حقاً.»

بدا لها السيد روبتشيرون أكبر حجماً وأشد رهبة وأكثر أناقة مما تذكر.

فأجاب: «نعم، لقد عدت يا آنسة. ولدي خبر جيد لك.»

«خبر جيد؟»

«نعم، فقد بعت لوحة والدك بمبلغ معتبر من المال، وسأسلمه لك غداً بعد أن أصرف الشيك.»

شبكت يونا يديها معاً وهتفت: «آه، أشكرك يا سيدي. كم أنت شهم.»

فقال: «لدي شيء آخر لأخبرك به. إن زبوني، وهو من المعجبين برسوم والدك، يدعوك لتناول العشاء معه هذه الليلة.»

فسألته: «هل كان صديقاً لوالدي؟»

هز رأسه نافياً: «لم يكن صديقاً، وإنما كان قد ابتاع

www.rewayti.net

احدى لوحات والدك منذ عام كما أنه سر جداً باللوحة التي أخذتها له الآن.»

هتفت بفرح: «ما أشد سروري بذلك. إنه بالغ اللطف إذ يدعوني إلى العشاء... ولكنني واثقة من أنك أنت الذي اقترحت عليه ذلك، يا سيدي.»

«إنك ذكية جداً يا عزيزتي. لقد فعلت ذلك في الواقع. إننا سنتناول العشاء في منزل السيد عند الساعة الثامنة مساء.»

ونظر إليها ثم سألها: «هل لديك ثوب مسائي؟»

أجابت: «نعم، انه في حقيبتي.»

وأشارت إلى حيث وضع الحوذي حقيبتها.

فنظر السيد دوربتشيرون في أنحاء المكان ثم قال:

«لا أظن بإمكانك تغيير ملابسك هنا، أو حتى أنك ستجدين ماء للغسيل.»

«هنالك فقط مغسلة واحدة في المطبخ البالغ القذارة.»

فقال: «سآخذك إلى حيث يمكنك تغيير ثيابك. تعالي معي الآن، وسأرسل سائق عربتي لكي ينزل حقيبتك.»

التقطت يونا القبعة واعتمرتها، ثم معطفها وقفازيها وحقيبة يدها الجلدية الصغيرة والتي كانت تحتوي على كل ما تملكه في العالم من نقود.

حملت هذا كله، ثم التفتت إلى دوبتشيرون تنظر إليه وقد بان القلق في عينيها الواسعتين وهي تقول: «سيكون علي أن أجد مكاناً أبيت فيه هذه الليلة، يا سيدي.»

أجاب: «نعم، أعرف هذا. ولكن أظن انه علينا حالياً ترك هذا الأمر للظروف.»

فرأى الحيرة بادية على وجه يونا، ولكنه لم يوضح قوله هذا وهو يسير أمامها هابطاً السلم.

لم يشأ فيليب دوبتشيرون أن يأخذها إلى منزل والدته كيلا يكون في ذلك مأخذ عليه قبل أن يراها الدوق، وإلا لكان هذا عليه من أيسر الأمور.

كان يعيش في منزل رائع في شارع هادىء قرب دار الأوبرا مستخدماً خادمين يطهيان له ويقومان بأعمال المنزل وذلك بشكل اثار حسد أصدقائه.

ولكن أن تقول يونا، مهما كانت براءتها وهي تقول ذلك، بأنها غيرت ثيابها في بيت رجل، فهذا كان في رأيه، خطأ فادح بالنسبة للخطة التي وضعها.

فقد كان فيليب دوبتشيرون بارعاً في التخطيط الدقيق لأي عمل يقوم به.

وهكذا أخذ يونا في عربته إلى معرض صغير له في شارع دي لابيه.

وكان نادراً ما يأخذ عملاءه المرموقين أو الميسورين إلى ذلك المكان إذ كان يجد من الأسهل عليه أن يأخذ إليهم لوحة أو أكثر إلى حيث يعيشون.

وكان دوبتشيرون يرى أن أكثر الناس الذين يأتون إلى باريس، هم في منتهى الجهل إذ يشترون اللوحات لا إدراكاً منهم بقيمتها الفنية بل لمجرد كونها تذكاراً من العاصمة المرحة فيأخذونها معهم عند عودتهم إلى ديارهم.

ولهذا كان من السهل إقناعهم بأن ما يحمله إليهم هو صفقة حقاً وفرصة العمر، وذلك حين لا يجدون أمامهم سواها يستجلب اهتمامهم.

www.rewayti.net

كان والده، والذي كان رجلاً ذكياً، قد أخبره، وهذا ما زال فتى، بأن أكثر الناس لديهم نظرة محدودة إلى الأمور.

«إياك أن تربك الزبون، يا فيليب. قرر أولاً ما تريده أن يفعل ثم أجعله يعتقد أن ذلك رأيه هو بينما في الواقع، يكون رأيك أنت.»

وأصبح هذا مبدأه الذي جعله أهم عملاء الفن في باريس وأكثرهم نجاحاً.

ولأنه كان مبدعاً، فقد كان يسأم من تكريس نفسه لبيع اللوحات فقط.

فقد كان الرجال الذين يتعرف إليهم في مجال العمل، من النبلاء القادمين من مختلف أنحاء أوروبا، الذين لم يكن اهتمامهم بالفن فقط، بل كذلك بالسياحة والتسلية.

ولهذا كان الزبائن جميعاً هم من الملوك والحكام المصريين النافذين، والأمراء الألمان، إلى النبلاء الانكليز الذين يأتون إلى باريس.

لقد أصبح فيليب دوبتشيرون يعرفهم جميعاً. ولأنه كان يتفانى في خدمتهم، فقد كانوا يتوجهون إليه على الدوام تملأهم الثقة بأنه سيلبي كل طلباتهم مهما كانت.

كان معرض الفنون الذي يملكه قد أصبح اليوم شهيراً ومرجعاً هاماً.

فإذا سأل السائح: «من هو دوبتشيرون؟»

سرعان ما يجيئه الجواب على الفور: «إنه المتعامل بالفنون ولديه معرض في شارع دي لابيه.»

وبمعنى آخر، قد منحه ذلك المعرض الهوية التي تثبت شخصيته.

أما بطاقته الشخصية فقد كانت محترمة إلى حد يكفل بأن يسكت الانتقادات له والتي لا مبرر لها والتي كانت كثيرة.

كان المعرض مقفلا بالطبع في مثل هذا الوقت من الليل بطبيعة الحال. ولكنه فتحه بالمفتاح الذي يحتفظ به، وبعد أن أشعل النور، دعا يونا للدخول وهو يقول: «هناك مكتباً في نهاية المعرض. وهناك أيضاً مغسل صغير ملحق به. حتى ان هناك الكثير من المرايا إذا شئت تسريح شعرك.»

وأرادت يونا أن تقف لتتفرج على اللوحات المعروضة، ولكن دوبتشيرون استعجلها في الدخول إلى غرفة مكتبه والتي كانت في غاية الفخامة وقد قام في وسطها مكتب طرازه يعود إلى عهد الملك لويس الرابع عشر.

أدخل الحوذي حقيبتها ثم فتحها حسب أوامر سيده.

قالت يونا: «إنني شاكرة لك لطفك وشهامتك لاحضاري إلى هنا.»

أخرج فيليب دوبتشيرون ساعته الذهبية من جيب سترته، ونظر إليها ثم قال: «الوقت الآن يشير إلى الساعة السابعة، سأعود إليك في الثامنة إلا عشرة دقائق بالضبط تكوني جاهزة من فضلك، كما يجب أن تكون حقيبتك مقفلة لكي تأخذيها معك.»

أجابت باسمة: «إنه وقت كاف.»

فقال: «أريدك أن تبدي في أحسن مظهر، لست بحاجة إلى أن أشرح لك مقدار الشرف الذي أسبغه عليك الدوق بدعوتك للعشاء معه، وأرجو أن تحسني التصرف قدر

www.rewayti.net

الامكان، فأنا انني لا أريده أن يشعر بخيبة الأمل من ابنة تورو.»

أجابت: «كلا بالطبع. ولا بد أنه رجل رائع إذ يشتري لوحتين من اعمال والدي.»

فقال: «وهو بالفعل رجل رائع.»

ثم غادر المكتب مغلقاً الباب خلفه.

عند ذلك أخذت يونا تفكر في مبلغ غرابة ما آلت إليه الأمور.

لم يكن قد خطر في بالها قط، وهي تغادر فلورنسا، بأنها بدلاً من أن تكون مع والدها هذه الليلة، ستتناول العشاء مع دوق إنكليزي وتغير ملابسها في معرض للفنون.

وفكرت في نفسها بأن زميلاتها في المدرسة لن يصدقنها مطلقاً إذا هي أخبرتهن بذلك.

ولكنها عادت ففكرت في أن إخبارهن عن حياتها قد أصبح الآن شيئاً بعيد المنال، ليس لأنها لم تستطع اتخاذ صديقات، فقد كانت تعلم أنها كانت أكثر الفتيات شعبية في المدرسة، وإنما لأن آباء وأمهات صديقاتها كن جميعاً من الأجانب المتزمتين الذين لديهم فكرة صارمة عمن ينبغي لبناتهن التعرف إليهن وعمن لا ينبغي.

ان الفنانين، مهما كانت موهبتهم، غير مقبولين اجتماعياً وهكذا سرعان ما أدركت يونا أنها، عندما تترك المدرسة، لن ترى بعد ذلك صديقاتها أبداً.

وكان هذا شيئاً عليها أن تتقبله بتعقل دون شكوى.

كانت يونا تتذكر على الدوام ماكانت تحدثها به والدتها، ليس فقط عن انكلترا بل عن الشعب الانكليزي أيضاً.

فهم، بالنسبة إليها، أفضل دوماً من الشعب الفرنسي، رغم أن أهالي القرية التي كانوا يعيشون فيها كانوا يحبونهم ويشعرونهم دوماً بالترحاب.

لكن والدتها كانت تتحدث عن رحلات الصيد في الريف في فصل الشتاء، عن النزهات في القوارب ولعب التنس في الصيف، وعن الحفلات.

كما وصفت لابنتها قاعة الاستقبال في قصر باكنغهام حين ذهبت لتؤدي التحية للملكة فيكتوريا يوم تقديمها إلى المجتمع.

كان كل هذا يذهل يونا ويخلب لبها إلى درجة أخذت معها تحلم غالباً بأنها في انكلترا.

وها هي ذي الآن تحدث نفسها بأن عليها الاسراع في ارتداء ملابسها كي تتمكن من التفرج على لوحات المعرض هذا قبل أن تخرج.

ولكن ارتداء ملابسها استغرق وقتاً أكثر مما كانت تتوقع. ذلك لأنه كان عليها أن تزيل التجعدات عن ثوبها المسائي والذي أدركت عندما أخرجته من الحقيبة بأنه ليس أنيقاً إلى حد يصلح ارتداؤه في دعوة الدوق إلى العشاء.

وكانت في فلورنسا تشتري ما تحتاجه من الثياب، بينما تدفع المشرفة على التلميذات، الثمن من المال الذي كانت تركته والدتها على تعليم ابنتها.

كانت الملابس غاية في البساطة، مما ترتديه التلميذات عادة، رغم غلاء ثمن القماش وجودة التفصيل، ما كان يجعل يونا تبدو صغيرة السن جداً.

كان أحسن ثوب عندها أبيض اللون بكشاكش من

www.rewayti.net

الدانتيل حول العنق وحول الكمين. ولكنها فكرت بشيء من التوجس بأن فيليب دوبتشيرون قد لا يرى أناقتها كافية فيشعر بالخجل من تقديمها إلى الدوق.

ولأنها كانت تشعر بالقلق، فقد زادت في عنايتها بتصفيف شعرها الأشقر البالغ النعومة، لكن لم يكن لديها فكرة عن آخر طراز لتصفيف الشعر في باريس.

وأخيراً، سرحته بالطريقة التي اعتادتها في المدرسة إذ مشطته إلى الخلف، ما بدا معه محيطاً بوجهها كالهالة، ثم جمعته بشكل قرص على عنقها.

كان هذا، رغم عدم علمها بذلك، الطراز الأخير في عالم تصفيف الشعر في أميركا.

أما بالنسبة إلى يونا، فقد كان الطراز الوحيد الذي يصلح لشعرها. ومرة أخرى أخذت ترجو ألا يعتبره السيد دوبتشيرون اكثر بساطة مما يجب.

استغرقت وقتاً طويلاً في الاعتناء بنفسها، وما أن انتهت من وضع ملابسها، التي كانت ترتديها، في الحقيبة، حتى فتح الباب ودخل السيد دوبتشيرون.

«هل أنت جاهزة؟»

رأته يشملها بنظراته من رأسها حتى قدميها فشعرت بالحرج لتفحصه هذا، وكذلك بالقلق خوفاً من أن يجد في مظهرها عيباً ما.

لكنه قال باسماً: «تبدين فاتنة. ولكن علينا ألا نتأخر. فلنخرج حالاً.»

جاء الحوذي حيث حمل حقيبتها. وبعد أن وضعت يونا على كتفيها وشاحاً صوفياً بسيطاً، ووصلت مع

دوبتشيرون إلى العربة، أدركت أن ثمة شخصاً آخر في داخلها.

صعدت إليها، وما أن تبعها السيد دوبتشيرون وجلس على المقعد الصغير وظهره نحو الجياد، حتى قال: «أيفيت، دعيني أقدم إليك الآنسة يونا تورو، وهذه تكون الآنسة ايفيت جوايان يا يونا.»

ساد صمت عميق من زاوية العربة: «وما السبب في هذا، يا فيليب؟»

أجاب: «لقد أخبرتك أن الآنسة تورو ستكون معنا على المائدة. وأظننا، بعد ذلك، ربما نخرج في سبيلنا إلى مكان آخر.»

أجاب الصوت العميق: «بل أنا واثقة من ذلك.»

كانت يونا، عند التعارف، قد مدت لها يدها مصافحة، ولكن عندما لم تجد التجاوب لذلك عند الأخرى، سحبت يدها بسرعة مدركة أنها أخطأت بذلك.

تحركت بهم العربة، وعلى ضوء مصابيح الشارع استطاعت يونا أن تلمح وجه المرأة الجالسة بجانبها.

كانت ملتفة بريش النعام القرمزي، وكان وجهها بالغ النحول وقد قام في وسطه أنف نحيل مستقيم.

ولكن عينيها كانتا سوداوين منحرفتين إلى أعلى، كما كانت أهدابها مثقلة بالكحل، ما جعل يونا تفكر في أنها تختلف عن أية امرأة رأتها أو تصورتها في حياتها، وعلى شعرها الأسود، وضعت قبعة مكونة من الريش المتهدل القرمزي اللون.

وفي ضوء كل مصباح كانوا يمرون به، كانت يونا ترى منها المزيد.

www.rewayti.net

كان فيليب دوبتشيرون يراقب المرأتين وقد كست وجهه ابتسامة. وخيّم عليهم الصمت مسافة قصيرة قبل أن يدخلوا من خلال بوابة إلى فناء ثم إلى مدخل منزل يتألق بالنور وقد امتدت فوقه سجادة حمراء، بينما وقف ستة من الخدم لمساعدتهم على الترجل.

كان واضحاً، كما رأت يونا، أن المرأة لا تعتبرها أهلاً للحديث معها.

ولأن يونا كانت تشعر بالتوتر، ليس فقط من تلك المرأة الغريبة، وإنما أيضاً من فخامة المنزل، فقد نزلت من العربة بشيء من التردّد.

شعر فيليب دوبتشيرون بما تشعر به، فقال:

«لا بأس. لا تدعي التوتر يستولي عليك. كان علي أن أنبهك إلى أن ايفيت جوايان لا تحب بقية النساء.»

فهمست تجيبه: «ربما كان علي... ألا... أحضر.»

فقال: «إنك ضيفة الدوق. وهي لا تخرج عن كونها ضيفة مثلك تماماً.»

أثناء كلامهما هذا، كانا يسيران في ممر مزين بقطع أثاث رائعة الجمال وزهريات ضخمة كانت الازهار فيها ترسل شذا هو، في رأي يونا، أجمل بكثير من ذلك الذي يفوح من ايفيت جوايان.

لكنها ما لبثت أن حدثت نفسها بأن عليها عدم انتقاد اي كان، فقد كانت كل هذه الأمور جديدة بالنسبة إليها.

إنها ستقابل الآن دوق، وهو رجل انكليزي. وهذا حري بأن يسر والدتها، إنه شيء ستتذكره على الدوام حتى ولو لم ترَ مرة أخرى منزل بنصف جمال هذا المنزل.

وسمعت صوت خادم يعلن: «الآنسة ايفيت جوايان، يا سيدي، الآنسة يونا تورو، السيد فيليب دوبتشيرون.»

ولكن كان هناك الكثير مما يشد نظرات يونا حتى وجدت من الصعوبة تركيز نظراتها. ثم، إذ بها ترى رجلاً، بين قطع الأثاث الرائعة، والأزهار، والتحف الصينية، والمرايا.

وخفق قلبها وهي ترى فيه نموذجاً للدوق وللرجل الانكليزي كما ينبغي أن يكون.

كان وسيماً فارع القامة، يبدو خلاباً في ملابس السهرة، وكذلك، وبشكل لم تستطع فهمه، كان يبدو قويّ الشخصية إلى درجة شعرت معها بخجل لا يوصف.

لم تكن يونا، عادة فتاة خجول، فقد كانت تجد كل من تراه شخصاً يستدعي الاهتمام، حتى حكايات الطفولة كانت دوماً تثير خيالها وانتباهها.

الآن، وهي تقف أمام الدوق فيحول هذا عينيه عن ايفيت جوايان إليها، شعرت بالثقة بالنفس تفارقها، لدرجة وجدت انه من المستحيل النظر في وجهه كما كانت تنوي فعله.

كانت والدتها كثيراً ما تقول لها: «انظري دوماً إلى وجه الشخص الذي تصافحينه، وتذكري دوماً أن الخجل لا يعني سوى الأنانية. إنه يعني أنك تفكرين في نفسك وليس في الشخص الذي تتحدثين إليه.»

ولهذا، كانت دوماً تصافح الآخرين بالشكل الذي كانت علمتها اياه والدتها، وعلى وجهها ابتسامة.

لكنها الآن، والدوق يصافحها، رأت من المستحيل أن

www.rewayti.net

تنظر إليه فأسدلت أهدابها التي بدت قاتمة فوق وجنتيها.

وكان الدوق يقول: «إنني مسرور برؤيتك، يا آنسة تورو. وإنني محظوظ حقاً إذ أملك لوحتين من أعمال والدك، كما أنني أقدم إليك تعزيتي القلبية بوفاته.»

فقالت بصوت خافت: «شكراً... لك.»

ثم، ولأنها شعرت بالخجل من غبائها، أرغمت نفسها على النظر إليه.

كان ينظر إليها بمعنى لم تستطع فهمه، وكأنه كان يتفحصها بنفس الطريقة التي قام بها السيد دوبتشيرون من قبل.

ولكن خيل إليها كذلك أنها ترى ابتسامة ساخرة خفيفة على جانبي فمه لا تستطيع هي أن تعتبرها ابتسامة بالضبط.

صافح الدوق السيد دوبتشيرون، وبعد أن أحضر لهم الخدم اكواب المرطبات، أخذت ايفيت جوايان تتحدث إلى الدوق بصوت خافت ناعم بدا معه واضحاً أن ما تقوله هو له وحده.

اقتربت يونا قليلاً من دوبتشيرون وسألته: «هل ستعلق لوحة والدي في هذه الغرفة؟»

كانت أثناء ذلك تنظر حولها وقد رأت أن معظم اللوحات المعلقة على الجدران كانت تنسجم مع أثاث الغرفة.

أجاب: «لا أظن ذلك. أظن أن السيد سيأخذ اللوحة معه إلى انكلترا.»

فسألها الدوق: «هل تتحدثين عن رسوم والدك؟»

أجابت: «كنت أتساءل عما إذا كنت تنوي تعليق اللوحة التي اشتريتها حالياً، في هذه الغرفة.»

فقال: «في الواقع إنني فكرت بأنها ستكون في هذه الغرفة في غير مكانها المناسب ولا ينسجم تاريخها مع أثاث الصالون. هل تهتمين بالرسم؟ أتراك فنانة أنت أيضاً؟»

أجابت: «كم أتمنى لو كنت أستطيع الرسم. ولكنني لا أملك موهبة والدي. عندما حاولت أن أنسخ رسومه، رأى أن محاولاتي بعيدة جداً عن الاتقان.»

ابتسم الدوق وقال: «من الخطأ دوماً أن يحاول المرء منافسة والديه، لقد حاول والدي أن يدخلني في لعبة الفروسية، وكانت النتيجة انني كرهت تلك اللعبة.»

فقال فيليب دوبتشيرون: «ولكنك من مشجعي رياضة الملوك. فقد قرأت في الصحف عن نجاحك فيها، هل تتوقع النجاح هذا العام؟»

أجاب الدوق: «إنني أحب أن أفوز بكأس أسكوت الذهبية. ولكن ثمة أكثر من خمسين من أصحاب الخيول السباق، يتمنون نفس الشيء.»

وهنا قاطعتهما ايفيت جوايان قائلة للدوق وهي تزم شفتيها متظاهرة بالاستياء: «إنك لا تتكلم معي.»

فقال الدوق: «إنني أصدقك في ذلك.»

سألته: «هل تحب الرياضة، يا سيدي؟»

وألقت نظرة استخفاف على يونا وكأنها تشعر بالغيظ إذ ترى الدوق يتحدث إليها. وقالت: «إن الفتاة الصغيرة تنصت إلى ما أقوله لك. فهي لها آذان طويلة.»

كان هذا مثلاً انكليزياً قالته بالفرنسية، وكان جارحاً

www.rewayti.net

بشكل جعل الدم يتصاعد إلى وجنتي يونا فأشاحت بوجهها.

لقد كان السيد دوبتشيرون محقاً حين قال إن الآنسة ايفيت لا تحب النساء.

لكن يونا فكرت في مبلغ ما ستشعر به من الضيق إذا كانت هذه المرأة ستهزأ بها طوال السهرة.

وتمنت فجأة لو أنها لم تحضر. ولكنها ما لبثت أن شعرت بسخافتها لهذا التفكير. فهل هنالك شيء أكثر أهمية وبهجة من أن تتعرف إلى دوق انكليزي، وترى منزله الرائع الفرنسي الطراز، ثم تحضر، لأول مرة في حياتها، حفلة عشاء؟ وتساءلت عما يدعوها للاهتمام بما تقوله لها هذه المرأة الفرنسية وبعد، فهي قد لا تراها في حياتها بعد هذه الليلة أبداً.

رفعت رأسها بكبرياء كأنها ترفض السماح بأن تكون موضعاً للسخرية، ثم ابتسمت وهي تقول للسيد دوبتشيرون بهدوء: «ما أجمل أن أكون هنا وأرى كل هذه الأشياء الجميلة حولنا. هل أنت الذي جهزت هذا المنزل بكل هذه اللوحات الفنية؟»

أجاب: «كلا لسوء الحظ. أعتقد بأن الدوق قد ورث معظمها. فقد كان جده قد اشترى هذا المنزل منذ أكثر من خمسين عاماً.»

فقالت: «إنني واثقة من أن له تاريخاً قبل ذلك، كانت والدتي قد أخبرتني عن منزل آخر في هذا الشارع كانت تملكه الأميرة باولينا بورغيز ثم اشتراه دوق ويلنغتون ليكون مقراً للسفارة الانكليزية.»

فقال الدوق الذي كان يستمع إلى حديثهما: «هذا صحيح، إن السفارة تبعد عنا بمنزلين، ولكن منزلي هو أجمل وأكثر اتساعاً.»

فسألته: «هل له تاريخ مهم؟»

حاول الدوق أن يجيبها لولا أن ايفيت تدخلت قائلة: «سأخبرك عن تاريخ يجعلك تضحك.»

ولكن قبل أن تتمكن من متابعة كلامها، أعلن الخادم بأن العشاء جاهز.

www.rewity.com/vb/
بنت عـــوان
www.rewayti.net

الفصل الثالث

أثناء العشاء، احتكرت إيفيت جوايان الحديث مظهرة بذلك ليونا وفيليب دوبتشيرون، وبكل وضوح، بان لا أهمية لهما مطلقاً.

كان الدوق ينصت إلى ما تقوله وقد كست وجهه ابتسامة ساخرة، ما جعل يونا تفكر في انه في بعض النواحي، مخيف نوعاً ما.

فهي لم تعرف شخصاً من قبل بامكانه ان يشترك في حديث ما، ويبقى في نفس الوقت بمعزل عنه.

كان يبدو لها انه كان يراقب كل ما يحدث وكأن امامه مسرحية تمثل بينما هو بين المتفرجين.

تساءلت عما اذا كانت هذه هي عادته في النظر إلى الحياة، ام ان ذلك فقط لأن هذه الأمسية لم تكن عادية.

ربما حفلة صغيرة مثل هذه لا يشارك فيها سوى أربعة اشخاص، هي شيء غير عادي بالنسبة إليه، والذي شعرت، بانه لا بد أن يكون هو دوماً مركز الاهتمام وسط جمع يستمع إليه باعجاب.

كانت غرفة الطعام بمثل روعة غرفة الاستقبال، فقد كانت الجدران مغطاة باللوحات الممتازة والتي كانت هذه المرة، من رسم فنانين فرنسيين، اما آنية المائدة الذهبية فقد كانت من صنع كبار الحرفيين الفرنسيين الذين سبق وقرأت يونا عنهم.

شعرت من الصعب منع نفسها عن النظر حولها إلى كل تلك

الأشياء الرائعة وذلك بطريقة تجعل من والدتها تشمئز منها اذ تراها سوقية.

لذا، أرغمت نفسها على الاكتفاء بالتلذذ بانواع الأطعمة الشهية التي أمامها.

كان والدها دوماً يجد متعة في الطعام الجيد، وطالما كان يردد: «من جملة الأشياء القليلة التي ترفه عني في حياتي في فرنسا، هو ان الطعام ليس شهي المنظر فقط، بل لذيذ المذاق أيضاً.»

فكانت والدتها تضحك وتجيبه قائلة: «انا شخصياً، يا جوليوس مستعدة لأن أتخلى عن كل هذه الأنواع التي تستغرق وقتاً طويلاً في التفنن بتحضيرها، وذلك في سبيل قطعة من البفتيك الجيد الطهو.»

كانت تقول هذا لتغيظ زوجها، فكان هذا يرفع يديه بذعر، ولكثرة ما كانت يونا تسمع مثل هذه الأحاديث، فقد تعلمت كيف تطهي انواع الطعام التي يحبها والدها، وذلك من امرأة عجوز كانت تتردد عليهم.

كانت والدتها قد علمت ان السيدة رينارد هذه كان زوجها اثناء حياته، يملك مطعماً في باريس. وبعد وفاته عادت إلى القرية لتمضي بقية حياتها في الحديث عن الماضي وعن جميع ذوي الأهمية من الناس الذين اعتادوا التردد على مطعمهم لأن الطاهي كان يتمتع بمهارة غير عادية.

على كل حال، فقد دفعها السأم من فراغ حياتها ووقتها، إلى مساعدتهم في الطبخ، وهكذا اصبحت يونا تلميذة لها.

وعندما ذاقت قطعة من السلمون المحشو بالمحار، تمنت لو ان والدها ما زال حياً لتصنع له مثله.

www.rewayti.net

كأنما الدوق قرأ افكارها، قال لها: «انني احب إلى جانب الرسم، الطعام الجيد، يا آنسة تورو.»

ابتسمت له وأجابت: «اعترف بأنني اصبح نهمة عندما يكون الطعام لذيذاً كهذا.»

فقال: «انك تتكلمين وكأن مثل هذا الطعام جديد عليك.»

اجابت: «لقد كنت اعيش في ايطاليا، والطعام الإيطالي لا يضاهي الطعام الفرنسي في لذته.»

قال الدوق: «وهذا هو رأيي أنا أيضاً.»

كان الدوق يرى بأن الحق مع دوبتشيرون عندما قال له ان ثمة فارقاً شاسعاً بين المرأتين.

فكر في انه من المستحيل ان يجد المرء مثل هذا الفارق بالصدفة. وخطر له ان الرجل قد خطط لهذا الأمر بعناية كبيرة.

فقد كان يعلم بفطنته ان ليس ثمة رجل لا يتملكه الفضول البالغ وهو يواجه إيفيت ويونا في وقت واحد.

لم يصدق الدوق لحظة واحدة ان يونا قد وصلت إلى باريس بشكل غير متوقع كما قال فيليب دوبتشيرون. ولا بد انه كان يعرفها منذ وقت طويل وكان يحتفظ بها لمثل هذه المناسبة.

فلو لم يكن هو نفسه قد جاء إلى باريس في هذه اللحظة بالذات، فلربما كانت حفلة العشاء هذه تقام في منزل رجل آخر ثري مرموق.

فهو لم يكن يثق بدوبتشيرون. ولكن هذه الأمسية كانت دون شك، مسلية للغاية رغم انها مختلفة عما كان قد صمم عليه في البداية.

فهو الآن، على الأقل، سيتمكن من ان يخبر بومونت عن انه وصل فعلاً إلى مفترق الطرق، ثم يطلعه على الطريق التي اختارها.

رأى ان إيفيت جوايان كانت غير عادية بالنسبة للواتي تعرف إليهن في باريس.

واذا كان فيليب دوبتشيرون يقول عنها انها اكثر مثيلاتها في باريس جمالاً، فهي كذلك قطعاً.

اما يونا، فهو يرى ان بامكانها ان تدهشه فقط اذا كانت حقاً من البراءة وصغر السن كما تبدو.

ذلك لأنه كان واثقاً تماماً من ان فيليب دوبتشيرون قد اعد يونا لهذا الدور الذي عليها ان تقوم به.

ولم يكن الدوق قد فاتته حقيقة ان يونا كانت ترتدي ثوب فتاة متواضعة وصغيرة السن جداً، وانه كان يلائمها دون شك.

ولكنه تساءل عما اذا كانت يونا فعلاً نقية او بريئة كما تبدو.

وبالنسبة إلى ثوبها وتصرفاتها، لا بد انها قد تدربت في مسرح ما، على كيفية ظهورها بمظهر الفتاة الصغيرة.

كان دوبتشيرون قد خدعه مرة، وليس في نية الدوق ان يبدو مغفلاً مرة أخرى.

ومع هذا، كان من المستحيل عليه ان يصدق ان ما تقوم به انما هو مجرد تمثيل.

وبينما كانت إيفيت تشيع حولها جواً من المرح، كانت يونا تبدو وقد أحاطت بها هالة من النقاء، ولأنه كان مهتماً بالمرأتين معاً، شعر بالراحة التي بدأت تنسيه غضبه من روز كافرشام وخصامه معها.

www.rewayti.net

وكذلك ابتدأ تعبه من أثر الرحلة الطويلة يتلاشى بعد الطعام.

وإلى جانب كل ذلك، كان يستمتع كذلك بالحديث مع فيليب دوبتشيرون.

كان يتعامل مع الرجل منذ سنوات إذ كان يزوده بالرسوم والمعلومات عن باريس، ولكنه كان من الفطنة بحيث يدرك ان دوبتشيرون كان في الواقع شخصية ممتعة ومثال الرجل الباريسي.

وعندما اقترب العشاء من النهاية، ابتدأ يفهم، نوعاً ما، ان الحياة بالنسبة إلى فيليب دوبتشيرون هي مزحة ضخمة مسلية، وان الضحك الذي يسببه للآخرين كان يعود عليه بحصة مضاعفة.

لم يكن مجرد رجل يبحث عن الثراء، ولكنه كان في رأي الدوق، رجلاً قد رأى الحياة من كل جوانبها وكأنها موكب يمر امامه فيملأ ليس جيوبه فقط بل عقله ليزيده معرفة.

ولهذا كان فيليب دوبتشيرون رجلاً شديد الاختلاف عن أولئك الرجال الذين يفرضون انفسهم ضيوفاً على الدوق ليتحدثوا عن الرياضة لأنهم يعلمون انه يهتم بها.

لطالما كان الدوق يزهو بقدرته على الحكم على الآخرين، ولكن ربما لأنه بالغ في التعمق في صفات من كان يدعوهم بالاصدقاء فقد بدا اكثر سخرية مما كان من قبل.

لقد أدرك بالضبط ما كان سكرتيره قد قال له اليوم، ولكنه مع هذا، سأل نفسه عما إذا كانت أية حياة قد يختارها لن تكون بعد فترة من الزمن، بنفس الرتابة المملة التي لا مناص منها.

قال الدوق بعد ان انهوا تناول القهوة: «بما انها ليلتي الأولى في باريس بعد غيابي عنها لفترة، فأنا اظن انه ينبغي ان أزورَ احدى اماكن التسلية المألوفة وأرى ان كانت تغيرت منذ رؤيتي لها لآخر مرة.»

فسأله فيليب دوبتشيرون: «وأي مكان تريد زيارته.»

ابتسم الدوق له ساخراً وهو يقول: «انه سؤال غريب وهل هناك مكان غير مطعم الطاحونة الحمراء؟»

بدا على إيفيت الاشمئزاز وقالت: «الطاحونة الحمراء؟ انني سآخذك إلى مكان يمكننا ان نرى فيه معرضاً مختلفاً عن أي شيء عرفته انت من قبل.»

ثم تابعت تقول بغموض: «سنذهب وحدنا، عند ذلك سترى.»

جعلها الدوق تظن للحظات انه سيقبل دعوتها، ثم قال: «انت تنتظرين مني ان اتخلى عن ضيوفي؟ كلا، سنذهب جميعاً، نحن الأربعة، إلى مطعم الطاحونة الحمراء.»

فهزت إيفيت كتفيها، ولكن لمحة من غضب كانت واضحة في عينيها، بينما توترت شفتاها بشكل ينذر بالشر.

لم يخطر ببالها لحظة ان الدوق قد لا يكون مهتماً بها، بل كل ما فكرت فيه هو ان اصطحاب فتاة تافهة صغيرة السن سيكون مبعث ضجر، اما دوبتشيرون فكان يجب ان يبقى في مكانه الطبيعي فلا يتطفل حين لا يكون مرغوباً فيه.

اما بالنسبة ليونا، فقد التمعت عينيها بابتهاج، فلطالما تمنت الذهاب إلى مطعم الطاحونة الحمراء رغم ان هذه الفكرة كانت ستصدم والدتها لو كانت هذه موجودة.

www.rewayti.net

وعلى كل حال، كانت قد فكرت في انها اذا هي جاءت للعيش مع والدها في مونتمارتر، فقد يأخذها إلى ذلك المكان الذي يجسد خصائص باريس التي لم تكن حتى الآن تعني في حياتها شيئاً ما عدا الاسم.

لم تكن تدرك انها بينما كانت تنظر إلى الدوق، كان دوبتشيرون ينظر إليها.

لم يفهم بالضبط اللعبة التي كان يقوم بها الدوق، ولكنه كان يعلم جيداً ان مطعم الطاحونة الحمراء ليس بالمكان المناسب ليونا.

ولكن إذا كان الدوق يريد الذهاب إلى هناك، فليس في نية فيليب دوبتشيرون ان يمنعه من ذلك.

فقد كانت هذه السهرة مدهشة وغريبة نوعاً ما منذ البداية. وهو لهذا غير مستعد لمناقشة الدوق في ما يريده.

على اية حال، من المتوقع من كل رجل انكليزي ان يتوجه، حال وصوله إلى باريس، إلى مطعم الطاحونة الحمراء.

كانت عربة الدوق في الانتظار، وكانت اكثر اتساعاً وراحة من عربة فيليب دوبتشيرون.

ولكن الأخير كان يتوقع ان يقترح ذهابهم في عربتين، ولهذا أبقى عربته في الانتظار في الفناء.

ودون ان ينطق بسؤاله، اعطاه الدوق الجواب قائلاً: «اننا سنذهب معاً. فمقعد عربتي الخلفي يتسع لثلاثة اشخاص.»

ثم جلسوا في المعقد الخلفي بينما جلس دوبتشيرون امامهم.

كانت يونا تنظر إلى الخارج وقد سلب منها اللب تألق

الشوارع الفسيحة بالأنوار، ومواكب المارة مقبلة فوق الأرصفة الواسعة بجانب المقاهي المزدحمة بالزبائن.

وشعرت بأن هذه الأمسية هي اكثر ما مر عليها من بهجة، فقد انستها الغد وكل المصاعب التي امامها وجعلتها تستمتع بكل لحظة تمر بها.

كانت دعوة الدوق لها لتناول العشاء، لطفاً بالغاً منه.

كانت تريد ان تتحدث معه عن الرسم، وخصوصاً عن رسوم والدها، ولكن كان من الصعب ان تتحدث معه في الأمور الجدية بينما الآنسة جوليان تستمع.

وتساءلت مفكرة عما إذا كانت ستراه مرة أخرى عندما تنتهي هذه السهرة.

ثم ما لبثوا ان وصلوا إلى مطعم الطاحونة الحمراء.

كانت اكبر بكثير مما كانت تتوقع، فقد كانت باتساع محطة القطار التي وصلت اليها حين قدومها إلى باريس، اما الضجة التي كانت تنبعث منها فقد كانت تكاد تصم الآذان، ورتب فيليب دوبتشيرون أمر من يرافقهم وسط هذا الازدحام وكذلك افضل مائدة.

كانت الفرقة الموسيقية تعزف لحناً شاعرياً لباخ.

بدا لها هذا مختلفاً جداً عما اعتادت ان تسمعه من قبل، ولكنه مع هذا كان مسموعاً خلال اللغط واختلاط الأصوات والقهقهات العالية التي كانت ترتفع فوق كل شيء آخر.

كانوا قد جلسوا لتوهم، عندما علا قرع طبول، وخرجت لاغولو وهي إحدى النجمات الجدد إلى باحة الرقص.

وسمعت يونا السيد دوبتشيرون يقول للدوق: «انها في العشرين من عمرها فقط.»

www.rewayti.net

كانت يونا تجلس على كرسيها وقد تسمرت نظراتها على ما كان يعرض امامها، وقد تشابكت يداها على الطاولة، وأمامها كوب من العصير لم يمس.

لم تشعر بأن الدوق كان يراقبها رغم همسات إيفيت له، وان السيد دوبتشيرون كان يراقبها هو أيضاً.

كان كل ما تشعر به، ان هذا اغرب واجمل رقص شاهدته في حياتها في مكان خارق للعادة.

وعندما انتهى العرض، وتدفق المشاهدون إلى باحة الرقص، قالت للسيد دوبتشيرون: «هل لك ان تشير لي إلى أي من الرسامين الموجودين هنا هذه الليلة؟»

نظر الرجل حوله وهو يقول: «لا بد ان تولوز تريك في مكان ما هنا. فهو يأتي دوماً إلى هنا مرتين أو ثلاثة مرات أسبوعياً، واذا استطعت رؤيته فسأريك أيضاً ديغاز الذي كان صديقاً لوالدك، وكذلك الرسام الكاريكاتوري ميتيفن.»

فقالت له: «اشكرك.»

سألها الدوق: «اخبريني عن رأيك في هذا المكان إذا كانت هذه هي زيارتك الأولى له.»

كان في صوته نبرة استفهام لم تخف على دوبتشيرون، فأجابته يونا ببراءة: «من الصعب ان اشرح شعوري بالكلمات، يا سيدي الدوق. ولكن بإمكاني ان افهم سبب اهتمام الفنانين به.»

«كيف؟»

أجابت: «ان الناس هنا... وكذلك الفنانين العاملين ذوو وجوه متفردة لا تشبه مانراه في أي مكان آخر.»

وعندما رأت نظرة الشك في عيني الدوق، اردفت بسرعة: «انهم على الأقل ليسوا من نوع الناس الذين اعرفهم.»

فقال: «لقد كنت في إيطاليا، ولكن في أي ناحية منها؟»

لم تستطع الايجابة، لأن إيفيت اخذت تهمس في أذنه فأخذ يستمع إليها.

وأثناء ذلك، اذا برجل بالغ الأناقة ببذلته المسائية وقبعته العالية المائلة إلى جانب رأسه. يتقدم نحو مائدتهم قائلاً للدوق: «مرحباً يا بلايز. لم اكن اتوقع ان أراك هنا، ظننتك في لندن.»

«لقد غادرت لندن أمس.»

لكن صديقه لم يكن يستمع إليه، بل كان ينظر إلى إيفيت وهو يقول لها: «كم انا محظوظ إذ اعثر عليك هنا، لأنني كنت أنوي زيارتك غداً.»

فأجابت: «انني أرحب بزيارتك.»

فقال لها: «تعالي لنرقص معاً، ان لدي شيئاً هاماً أريد ان اخبرك به.»

عند ذلك نظر الدوق إلى دوبتشيرون وقال: «اظن، يا فيليب انه ينبغي على الآنسة تورو ان تنام باكراً، فهل آخذها إلى البيت؟»

أجاب فيليب دوبتشيرون وفي عينيه نظرة ضاحكة: «هذا منتهى العطف منك يا سيدي، ولكن لسوء الحظ، ليس لديها بيت حالياً.»

فسأله الدوق: «ماذا تعني؟»

أجاب دوبتشيرون: «لقد وصلت من السفر هذا اليوم، كما سبق واخبرتك. وكنت ناوياً ان أبحث لها، بعد انتهاء السهرة،

www.rewayti.net

عن فندق محترم، ان حقيبتها، في منزلك، وكنت تركتها هناك لأعود فآخذها فيما بعد.»

بدت شبه ابتسامة على شفتي الدوق ثم قال وهو يرفع حاجبيه: «منزلي؟ وهل تعتبره فندقاً للآنسة تورو لكي تمضي فيه الليلة؟»

«انه بكل تأكيد اكثر راحة من أي مكان ممكن ان آخذها إليه.»

قال الدوق: «انني لا استطيع ان اقرر تماماً ما اذا كنت ذكياً ماكراً ونافذ البصيرة، أم انك مجرد رجل وقح لعين.» ثم وقف وتابع يقول: «على كل حال، بلغ الآنسة إيفيت اعتذاري وطمئنها إلى انني ساعبر عن شكري لها بشكل مناسب وذلك لما منحتني إياه من سرور برفقتها.»

أجاب فيليب دوبتشيرون: «انها ستصاب بخيبة أمل، ولكن لا شك ان المشاعر الثائرة يمكن تهدئتها.»

أجاب الدوق: «بالطبع، وأنا واثق بعودتك غداً ومعك اللوحة التي وعدت بأن تريني اياها.»

أجاب دوبتشيرون: «سأحضرها، يا سيدي.»

التفت الدوق إلى يونا، ولكن ادهشه أن يرى انها لم تكن تستمع إلى الحديث، بل كانت تحدق بنظراتها إلى مكان ما.

ثم هتفت بابتهاج: «انني واثقة من ان ذلك هو السيد تولوز لوتريك انه يبدو تماماً كما كان والدي يصفه لي، وهو يخطط صورة لفتاة ترقص.»

نظر دوبتشيرون في اتجاه نظراتها، واجاب: «نعم، انه لوتريك. ليس غريباً ان ترتعب أسرته من مظهره.»

كان القزم، والذي كان يرتدي قبعته الصغيرة المستديرة، بساقيه القصيرتين ورأسه الكبير الذي لا يتناسب مع حجمه، وأنفه العريض الذي استقرت فوقه نظارات ذات اطار فولاذي ولحيته الشعثاء، يبدو حقاً مضحكاً متنافر الشكل.

قالت يونا بعطف: «ليس له ذنب بشكله هذا.» وكانت تريد ان تتابع الحديث لولا انها انتبهت إلى ان الدوق كان واقفاً فرفعت بصرها إليه.

قال بهدوء: «انني ساخذك إلى البيت.»

أجابت: «اشكرك.»

وعندما ابتدأت تترك المائدة، ادركت ان فيليب دوبتشيرون لا يتبعهما.

نظرت إليه بذعر، فقال بسرعة: «لا بأس، ان الدوق سيهتم بأمرك، كما ان حقيبتك في منزله.»

«واين... سامكث؟»

أجاب: «سيخبرك الدوق، اتبعيه فهو لا يحب الانتظار.»

«كلا طبعاً.»

والتقطت وشاحها الذي كان ملقى على مسند الكرسي ثم اسرعت خلف الدوق الذي كان قد سبقها نحو باب الخروج.

كان من المستحيل عليهما الحديث وهما يشقان طريقهما بين جموع الزبائن.

كان هذا الخليط من الألوان يعكسه جدار مغطى تماماً بالمرايا.

توقفا عند الباب لفترة قصيرة في انتظار العربة، ثم وعندما حضرت، جلسا في المقعد الخلفي الذي اصبح الآن

www.rewayti.net

واسعاً مريحاً بعكس ما كان عليه عندما سبق وجلسوا عليه هم الثلاثة.

قالت يونا بصوت ناعم خافت: «اشكرك لهذه السهرة الرائعة.»

فسألها: «هل استمتعت بها؟»

أجابت: «لقد استمتعت بالعشاء في منزلك اكثر من أي شيء قمت به من قبل. ولكنني طالما تمنيت رؤية مطعم الطاحونة الحمراء.»

«لماذا؟»

«لأن والدي كان يحدثني عنها، حتى ان زميلاتي في المدرسة كانوا قد سمعوا بها.»

فسألها: «المدرسة؟»

أجابت: «لقد كنت في مدرسة داخلية في فلورنسا طوال السنوات الثلاث الماضية.»

بقي الدوق صامتاً لحظة، ثم قال: «هل طلب منك فيليب دوبتشيرون ان تخبريني بذلك؟»

نظرت إليه بحيرة، ثم قالت: «كلا، وما الذي يدعوه إلى هذا؟ لكن ربما كان قد اخبرك يا سيدي بأنني جئت إلى باريس... لأن والدي طلبني، واذا بي أعلم انه... قد مات.»

وكان في صوتها رجفة قصيرة لم تفت الدوق.

«اخبريني ماذا حدث منذ البداية.»

فابتدأت: «عندما توفيت والدتي...»

اخذت تحدثه ببساطة وبكلمات معدودة كيف ماتت والدتها وتركت كل ما تملكه من مال من اجل تعليمها، ثم بعد ذلك ارسلت إلى المدرسة في فلورنسا، ولم تعد إلى فرنسا

إلا بعد ان طلب والدها منها ذلك ببرقية، وذلك بعد ان كتبت إليه بأنها اصبحت اكبر سنًا من ان تستمر في تلقي العلوم في المدرسة.

ولم تدرك ان الشكوك راودت الدوق في صحة قصتها هذه لمجرد انها حدثته بها بمثل هذه السرعة والاختصار، لقد رآها قصة مستظهرة ومدروسة جيداً.

فتاة صغيرة بريئة تصل إلى باريس فتجد والدها قد مات، فيأخذها دوبتشيرون في نفس الليلة لتتعشى مع دوق.

واذا كانت يونا تجد في هذا ما يدعو إلى الدهشة، فهو يراه بعيداً عن التصديق.

استند إلى الخلف ومضى ينظر إلى جانب وجهها الذي كانت اضواء مصابيح الغاز في الشارع تحدد جوانبه.

رأى انه كانت فطنة بالغة من دوبتشيرون ان يخبرها بأن لا ترتدي قبعة في حين كل امرأة أخرى في باريس لديها قبعة مسائية مزينة بكل انواع الريش والورود الصناعية.

لكن يونا لم تبذل أي مجهود لاجتذاب اهتمامه أو فرض شخصيتها عليه.

وربما كان هذا هو السبب الذي جعل من الصعب عليه ان يحول نظراته عنها.

لكنه حدث نفسه، بعد ان انتهت من الكلام، بأنها قصة جيدة. وعلى كل حال، ليس من اللائق ان يريها بسرعة بانها لم تستطع خداعه.

فإذا كانت تقوم بتمثيل دور ما، فسيتابعه معها، ثم قال لها: «لا بد انها كانت صدمة لك عندما علمت حال وصولك إلى باريس، بأن والدك قد توفي.»

www.rewayti.net

أجابت: «لم استطع تصديق ذلك، ولكنني لم اكن قد رأيته منذ ثلاثة سنوات، ففكرت في انه... قد تغير.»

«ما الذي جعلك تظنين ذلك؟»

أجابت: «لم يكن مرسمه... من نوع الأمكنة التي كان يحتمل العيش فيها... في حياة والدتي.»

«إذن، فقد منعك منظر مرسمه من الشعور بالتعاسة.»

فقالت: «بل شعرت بالتعاسة، لكنني وبشكل ما، شعرت بأنني انما فقدت والدي منذ وقت طويل.»

كان في صوتها نبرة الأسى المناسبة تماماً، كما كان تفسيرها معقولاً ومفهوماً.

ومرة أخرى اخذ يحدث نفسه بأن كل شيء كان متقن السرد، هذا إلى صدف كثيرة متطابقة.

كان من غريب المصادفات ان تصل إلى باريس في نفس يوم وصوله، وان نوع الرسوم التي كان يحبها كانت موجودة، وانه لم يكن لديه برنامج معين لقضاء السهرة.

وبعد، من هي هذه الفتاة التي تأتي من مدرسة داخلية فتذهب معه مباشرة في عربة دون ان يكون لديها مكان تذهب إليه.

قال لها: «لي الشرف بأنك تريدين المكوث معي. وقد يكون رأيك هو ان نعرف بعضنا البعض قليلاً قبل ذلك.»

كانت يونا تنظر من النافذة، فالتفتت إليه ولكن الظلام لم يسمح له بأن يرى التعبير الذي ارتسم في عينيها وهي تسأله: «امكث... معك؟ وهل سأمكث يا سيدي... في منزلك؟»

«اذا كان هذا ما تريدينه.»

أجابت: «ولكن... طبعاً هذا شيء رائع، انني لم احلم... لم اتصور بانك ستدعوني لأكون ضيفة في منزلك.»

ورأى الدوق في كلامها هذا سذاجة متكلفة غير مقبولة فقال: «اظن ان هذا ربما ما كان يريده دوبتشيرون، ولا بد انك كنت تعلمين ذلك.»

فقالت: «لقد كان بالغ الشهامة معي... عندما وجدني في المرسم واخبرني عندما باع لوحة والدي بانه سيعود ويضع.. خطة... لمستقبلي.»

لم يتكلم الدوق بينما أردفت هي تقول: «كما ترى... لقد وصلت إلى باريس وليس لدي سوى القليل جداً من النقود... وقد كنت محظوظة جداً لأن السيد دوبتشرون سيتمكن من بيع اللوحة.»

فقال الدوق: «محظوظة جداً في الحقيقة، وطبعاً اخبرك دوبتشيرون بأنه سيسلمك النقود غداً؟»

أجابت: «نعم، هذا ما قاله... وبهذا كنت ساتمكن من دفع أجر إقامتي في أي مكان كان.»

«وقبل ان تأتي إلى منزلي، اين غيرت ملابسك إلى ثوب السهرة؟»

فقالت ضاحكة: «لقد اخذني السيد دوبتشيرون إلى معرضه للفنون. انه مكان غريب لتغيير الثياب، ولكن كان بإمكاني ان اغسل يدي ووجهي وافتح حقيبتي في غرفة المكتب.»

ولم يصدق الدوق كلمة مما قالت، فقد كان واثقاً تماماً من ان القصة ملفقة من أولها إلى آخرها.

لقد منح دوبتشيرون ويونا علامة كاملة لتأليفهما لهذه

www.rewayti.net

الرواية التي بدت مماثلة لما يحكى في مجلة فتيات المدارس، وهل سمع احد من قبل بامرأة تغير ملابسها في معرض للفنون؟ وهل هناك سوى دوبتشيرون يفكر في إحضار حقيبة ثياب امرأة إلى المكان الذي تكون مدعوة فيه لتناول العشاء؟

أراد ان يقهقه عالياً، ولكنه حدث نفسه بأن الاسراع في كشف خطة يونا الصغيرة الساذجة قد تفسد التسلية.

وصلا إلى منزله، وعندما دخلا الردهة سأل الدوق الخادم الذي كان بالانتظار: «لقد علمت بأن ثمة حقيبة تركت هنا قبل العشاء.»

«نعم، يا سيدي. لقد قال السيد الذي احضرها انه قد يأتي لأخذها فيما بعد هذه الليلة.»

قال الدوق: «لقد رتبت الأمر بحيث تمضي الآنسة هذه الليلة هنا، فخذ حقيبتها إلى غرفة الورود ثم افرغ محتوياتها.»

«حسناً جداً يا سيدي.»

فقال الدوق ليونا: «فلندخل إلى الصالون.» وسار إلى الباب يفتحه قبل ان يصل الخادم إليه.

كان جو الغرفة يعبق بشذا الورود، ولم يكن ثمة سوى شمعات قليلة مشتعلة.

كان المشهد، من الجمال، بحيث وقفت يونا تنظر حولها وقد بدا الاعجاب على وجهها.

سار الدوق إلى حيث قامت منضدة عليها طبق من الشطائر، وسألها: «هل انت جائعة؟»

أجابت: «كلا، اشكرك. فقد كان العشاء رائعاً، كما احب ان اشكر الطاهي لطهوه الممتاز.»

«يمكنك ان تشكريه غداً، وانا واثق من ان هذا سيسره جداً، هل لك بشيء من العصير؟»

فقالت: «كلا... فأنا لا اشعر بالعطش.»

جلس على كرسي ثم سألها: «والآن، بما انك ستمكثين معي، ما الذي تنوين القيام به أثناء ذلك؟»

نظرت يونا إليه وقد اطلت الحيرة من عينيها. وعندما لم يقترح هو شيئاً بالنسبة إلى ذلك، جلست بشيء من التوتر على حافة الكرسي وقالت: «ها قد فهمت الآن... لا بد ان تراني في.. منتهى الغباء.»

فسألها: «وكيف ذلك؟»

أجابت: «لقد قلت للسيد دورتشيرون بأنني اريد عملاً، وذلك لكي اتمكن من الحصول على بعض المال، انما لم يخطر ببالي بأنني قد اجد ذلك عندك.»

فسألها: «وما العمل الذي يمكنك ان تقومي به عندي؟»

أجابت: «انني... انني لست واثقة تماماً، عندما كنت جالسة في المرسم بينما كان السيد دوبتشيرون يبيع لوحة والدي، فكرت في ان الشيء الوحيد الذي بامكاني القيام به هو ان اعلم الاطفال اللغة الانكليزية، ولكن...»

وسكتت، فقال يستحثها: «ولكن ماذا؟»

«خفت انني قد أبدو صغيرة السن لذلك.»

«وماذا تتصورين ان يكون نوع عملك عندي.»

«بإمكاني ان اكتب رسائلك. ان كتابتي جيدة حقاً.»

فقال: «ان لدي سكرتيراً ممتازاً يقوم بذلك، كما انه هو بنفسه لديه سكرتير يعمل معه منذ سنوات، كلما جئنا إلى باريس.»

www.rewayti.net

فكرت يونا للحظات، ثم تنهدت وقالت: «هناك اشياء كثيرة احسنها بعض الشيء، وعلى كل حال، لا اظنك بحاجة إليها.»

سألها: «وما هي؟»

«يمكنني ان اعزف قليلاً على البيانو، ان ارسم ولكن دون إتقان، وقد سبق وقال والدي انني لن اصبح فنانة أبداً.»

فقال: «لا اتوقع منك ان ترسمي الي لوحات، وانا واثق من ان دوبتشيرون بامكانه ان يزودني بأية لوحة تعجبني.»

فقالت موافقة: «هذا صحيح، ولكنني كنت اريد فقط اطلاعك على ما لا يمكنني القيام به.»

«إذن، فلنتجاوز هذا إلى ما بإمكانك القيام به.»

رمقته بنظرة معذبة، وقالت بلهجة بائسة: «رغم ان والدتي قد انفقت الكثير على تعليمي، فأنا لا استطيع ان اجد طريقة... استفيد فيها من... ذلك العلم.»

فسألها: «ألم يسبق لك ان نظرت في مرآة؟»

حدقت إليه بدهشة، ثم اجابت: «طبعاً، عندما اسرح شعري.»

فقال: «انظري إليه الآن، واخبريني ماذا ترين؟»

وقفت، ولأنها لم تكن طويلة القامة، فقد وقفت على اطراف اصابعها لتنظر إلى المرآة الذهبية الإطار والمعلقة فوق مختلف انواع التحف الموجودة على رف المدفأة الرخامي.

حدقت في صورتها فرأت انها لم تر نفسها من قبل بين هذه الأشياء الجميلة.

فالسقف المزخرف، إلى اللوحات على الجدران، الستائر

الحريرية السميكة... كان كل هذا يؤلف نوع الغرفة التي طالما تشوقت للعيش فيها، وكذلك كانت والدتها.

سألها الدوق من خلفها: «حسناً؟»

استدارت إليه وهي تبتسم له، ثم قالت: «انا آسفة، فلم اكن انظر إلى صورتي بل إلى غرفتك الرائعة، انها مثل إحدى لوحات الرسام بوشير واشعر بأنني أبدو فيها مثل مدام دي تومبادور حبيبة الملك لويس الرابع عشر، هل تذكر الصورة التي كان قد رسمها لها؟»

فقال: «قد يكون بإمكانك ان تكوني كذلك.»

أجابت: «ولكن الملك كان يحبها، بينما لم يعد هناك ملوك في فرنسا هذه الأيام، ثم لو انني كنت مدام دي بومبادور، لما وجدت في نفسي المهارة الكافية لكي أقترح ان تكون التحف الصينية الرقيقة وردية اللون كهذه الزهريات الجميلة على رف مدفأتك وذلك كما كانت هي فعلت.»

ثم مدت اصابعها لتلمسها برقة فائقة.

كان هو ينظر إليها مفكراً في ان لديها من رشاقة الحركات ما لا يمكن أبداً ان يكون طبيعياً، ولا بد انها تعلمته في معهد للتمثيل.

تنهدت بسرور بالغ، ثم قالت: «اشعر بأنني اجعلك تسهر، بينما كنت تقول لدوبتشيرون انك متعب، انني انا أيضاً متعبة، ولكن كل شيء هنا هو من الجمال بحيث أريد ان المس نفائسك وانظر إليها واحدث نفسي عن كيفية صنعها.»

سألها: «ومع هذا تريدين ان تذهبي للنوم؟»

أجابت بصوت حالم: «سيكون كل هذا موجوداً... غداً.»

www.rewayti.net

ثم، وكأنها تذكرت فجأة ما كانا يتحدثان به، اضافت تقول: «اشكرك كثيراً لاستضافتك لي، وغداً، عندما يفارقني هذا النعاس، ربما سيكون بإمكاني ان افكر في ما يمكنني القيام به عندك.»

وقف الدوق ببطء وقد بدا وكأنه على وشك الكلام، ولكن قبل ذلك، شبكت يونا يديها قائلة: «كم اتمنى لو ان والدتي تراني هنا، ان البهجة ستتملكها لكوني أسكن مع رجل انكليزي من اولئك الذين كانت تعرفهم عندما كانت فتاة، واظنها ستشعر بالسعادة لأنني سأكون، بعد موت والدي، بأمان... معك.»

رفعت بصرها اليه، وساد صمت قصير اخذ الدوق أثناءه ينظر في عينيها متفحصاً ما جعل يونا تشعر بالخجل مرة أخرى.

ثم قال بصوت يحتوي على شيء من الدهشة: «اذهبي إلى فراشك، اننا متعبان نحن الاثنان، وسنتحدث عن هذا الأمر غداً.»

الفصل الرابع

استيقظت يونا على صوت دخول الخادمة إلى غرفتها تحمل صينية الافطار.

وضعتها على المنضدة بجانب فراشها، ثم تحولت إلى النافذة تبعد عنها الستائر لتتدفق أشعة الشمس إلى الغرفة.

مضت لحظة لم تستطع فيها يونا أن تعرف أين هي، ولكنها ما لبثت أن تذكرت، فخفق قلبها.

إنها الآن في باريس، وهي تسكن عند الدوق ولستانتن.

جلست تنظر إلى صينية الافطار الحسنة الاعداد بأوانيها الفضية، وقد تملكها السرور.

وسألت الخادمة: «كم الساعة؟»

أجابت هذه: «إنها العاشرة، يا آنسة.»

هتفت يونا بذعر: «العاشرة؟ وهل هذا ممكن؟ كيف بقيت نائمة إلى هذا الوقت؟»

أجابت الخادمة: «لقد كنت متعبة يا آنستي.»

كررت يونا: «الساعة العاشرة! قد يظن سيدي الدوق في عدم نزولي لتناول طعام الافطار... سوء أدب مني.»

ابتسمت الخادمة وقالت: «لقد ذهب السيد للنزهة على صهوة جواده، يا آنسة، فلا لزوم إذن إلى السرعة.»

شعرت يونا بالارتياح، وأدركت أنه كان عليها، الليلة الماضية، أن تسأل الدوق عن الوقت الذي عليها أن تتناول

www.rewayti.net

فيه طعام الافطار وعما إذا كان ينبغي عليها أن تتناوله معه.»

لم تتذكر أنها تناولت من قبل فطورها في الفراش إلا إذا كانت مريضة، وعندما كانت تعيش مع والديها كانوا دوماً يتناولون الافطار معاً في تمام الساعة الثامنة.

لقد أدركت الآن كم كانت متعبة الليلة الماضية، ولم يكن ذلك فقط بسبب الرحلة الطويلة في القطار والتي لم تستطع أثناءها النوم، وإنما مشاعر النهار أيضاً كان لها تأثير كبير.

أولاً، كان هناك الصدمة التي تلقتها عندما علمت بموت والدها، ثم إدراكها بأنها أصبحت وحيدة دون مكان تذهب إليه.

ثم كان هناك الشعور البالغ بالبهجة عند تناول العشاء مع الدوق، ثم الذهاب إلى مطعم الطاحونة الحمراء والتي أخذت تستعيد الآن مشاهدها فتراها أكثر غرابة مما كانت تتصور.

لم تفكر إلا بعد أن أصبحت في الفراش مستعدة للنوم، بأن ذهابها إلى مثل هذا المكان مبكر بعد وفاة والدها ربما كان أمراً غير لائق ويستوجب اللوم.

ولكنها سألت نفسها عما كان بإمكانها أن تفعل غير ذلك، شاعرة بأنها لو كانت قد أصرت على البقاء في البيت وحدها تعيسة تندب والدها، لرآها دوبتشيرون والدوق متعبة للغاية.

ولكنها عادت فتذكرت أن ليس لديها بيتاً، وأنها إذا لم تمتثل لما أراده الدوق منها، لما كان قدم إليها ضيافته في معرض الفنون.

وكانت من الفطنة بحيث أدركت أن وراء مرح وتملق السيد دوبتشيرون تكمن قسوة وإصرار على نيل ما يريد.

ورأت أنه لن يتردد في الاستمرار في بيع رسوم والدها لمصلحته الخاصة، إذا هي لم تمتثل لما يريد.

وذهلت للشكوك التي تساورها بشأن أي شخص كان، خصوصاً باتهام شخص مثل السيد دوبتشيرون بعدم النزاهة، ولكن يونا كانت ذكية، ولم تستطع مقاومة التساؤل عما كان سيحدث للنقود التي سيكتسبها من وراء بيعه لوحات والدها اذا لم تحضر هي إلى المرسم اللحظة المناسبة.

يبدو أنه من غير المحتمل أن السيد دوبتشيرون، وهو الذي لم يكن يعلم حتى بوجودها في هذه الحياة، إذ لم يسبق أن رآها، قد يتكبد المتاعب لكي يعثر عليها ليسلمها المال الذي يحق لها قانونياً.

ثم حدثت نفسها بشيء من التوجس: «عليّ أن أفعل كل ما يريده.» وتساءلت إلى متى ستدوم النقود التي ستسلمها.

إن ذلك يعتمد طبعاً على كيفية إنفاقها. وفكرت في مبلغ شهامة الدوق التي جعلته يدعوها للسكن في بيته.

وتساءلت عما إذا كان هناك الكثير من الرجال في مثل شهامته نحو فتاة قد عرفوها لتوهم، وخصوصاً فتاة لا تعنيهم كثيراً.

فكرت في أنه لم يطلب منها فقط أن تبقى، ولكنه سيحث لها عن عمل. وشعرت بالمكان مشرقاً حولها لهذه الفكرة البهيجة، ذلك أن وجودها في منزل كهذا، يحيط

www.rewayti.net

بها لوحات كالتي تراها في معارض الفنون، كل ذلك كان كحلم رائع.

تمنت ألا ينتهي كل هذا بسرعة. أنهت فطورها، ولأن الخادمة كانت قد قالت بأن الجوّ حار، ارتدت ثوباً خفيفاً، وكان من الموسلين، وفي الواقع أنها كانت خاطته بنفسها.

ذلك أن معلماتها في المدرسة الداخلية، كنّ بالغات المهارة في أشغال الإبرة، فقد علمنها الخياطة بالإبرة إذ كان هذا تقليداً متوارثاً عندهن.

وقد نقلت يونا طراز هذا الثوب عن ثوب إحدى زميلاتها اللاتي يأخذهن أهلهن البالغو الثراء إلى أفضل وأغلى دور الخياطة في روما. وكانت بين زميلاتها تبدو كعصفور صغير بين سرب من طير السنونو، ولكنها كانت تحب يونا كثيراً ويسرها جداً أن تنقل عنها طراز ملابسها.

وكانت يونا قد أنهت ارتداء ملابسها عندما دخلت الخادمة الغرفة، فقالت لها: «كان يجب أن تقرعي الجرس، يا آنسة.»

أجابت يونا: «لم أفكر في ذلك، فقد تعوّدت على ارتداء ملابسي بنفسي.»

فقالت الخادمة: «تبدين جميلة جداً، وأنا واثقة من أن سيدي الدوق سيراك هو أيضاً كذلك.»

أجابت يونا: «أرجو ذلك.»

تساءلت وهي تهبط السلم عما إذا كان قد عاد من نزهته، وعما إذا كان في هذه الحالة، قد دخل الصالون.

لكنها عندما دخلت الصالون لم تجده هناك لذلك كان

بامكانها التفرج، أن تتفرج على النفائس التي يحتويها من لوحات وتحف.

* * *

أخذ الدوق، وهو يجول في الحديقة العامة على صهوة حصانه، يرفع قبعته لأصدقائه ومعارفه، ولكنه لم يتوقف للحديث معهم كما كانوا يتوقعون منه.

فهو لم يأت إلى باريس ليتمسك بالتقاليد الاجتماعية، ثم انه كان يريد التفكير بالأمور التي حصلت في الآونة الأخيرة.

لقد نام جيداً، واستفاق باكراً يساوره شعور بالسعادة وبأن هذا النهار سيكون في غاية الأهمية.

عندما تناول فطور الصباح بمفرده، تساءل عما إذا كانت في الواقع، صادقة غير مدعية، ولكنه عاد يحدث نفسه بأنه ليس ذلك الأحمق الذي يدع دوبتشيرون يخدعه للمرة الثانية. وعندما تناول القهوة، دخل بومونت الغرفة قائلاً: «سمعت بأن لديك ضيفة، يا سيدي.»

أجاب الدوق: «تصورت أن هذا سيدهشك.»

فسأله متردداً: «هل سبق وكانت هنا من قبل؟»

كان يعلم أن الدوق يكره أن يحقق معه بشؤونه الخاصة. ولكن إذا حدث خطأ ما، فالمسؤولية ستلقى على كاهله على الفور، ولهذا يريد أن يكون مستعداً.

قال الدوق: «كلا، إنك لم تقابلها من قبل، حتى ولا أنا في الواقع، حتى ليلة أمس.»

وبدا على الدوق أنه لا يريد الاستمرار في الحديث.

www.rewayti.net

وما لبث أن خرج من الغرفة إلى حيث كان ثمة حصان في انتظاره أمام الباب الخارجي.

ففي باريس كان دوماً يذهب للنزهة على صهوة الحصان، وبسبب السرعة التي ترك فيها انكلترا، لم يجد الوقت ليحضر جياده معه.

وإذ كان السيد بومونت لا يثق باصطبلات تأجير الخيل، فقد سأل أحد اصدقائه عما إذا كان يعيره جواداً لمدة يومين.

وافق الكونت دي كليرك بسرور ولمعت عينا الدوق بهجة وهو يرى حصان رائع أسود اللون كان اثنين من السائسين يجاهدان في سبيل كبح جماحه.

ألقى الدوق بنفسه فوق السرج، ثم انطلق في الطريق، وأخذ السيد بومونت ينظر إليه وهو يبتعد، مفكراً في أنه لا يمكن أن يجد فارساً يماثله روعة وتمكناً من الجواد.

وحدث نفسه بأن الدوق لا بد سيعود وقد تحسن مزاجه.

ثم أخذ يتساءل عمن عسى أن تكون تلك المرأة التي أحضرها إلى المنزل الليلة الماضية.

لقد ذهل بومونت، في الواقع، لاحضار الدوق ضيفة بعد ما قاله بالأمس فقط.

ذهب إلى مكتبه حيث علم من الكاتب أنه لم يعرف اسمها بعد، ثم طلب منه أن يعلمه عندما تنزل من غرفتها، ليجلس بعد ذلك إلى مكتبه لصرف شؤون العمل، وبعد ذلك بساعة واحدة، أخبروه أن الآنسة في الصالون، فترك مكتبه ثم اجتاز الردهة.

أثناء ذلك كان يتساءل أيّ طراز من النساء قد أسر اهتمام

الدوق هذه المرة، فهو كان يدرك تماماً أن باريس قد تغيرت كثيراً في السنوات الأخيرة.

لقد اتجهت باريس في نهاية القرن نحو الأمور الفنية والأدبية.

فبعد دراسة السيد بومونت للوضع في فرنسا من انكلترا، علم أن نهاية القرن قد أوجد طرازاً للجمال النسائي أخذ يظهر في أعداد لا تحصى في اللوحات والروايات.

كانت مثل هذه المرأة تظهر في كثير من مسرحيات سارة برنار.

وكان يمكن أن تكون واحدة من أولئك السيدات شبيهات الزنابق شحوباً، ووهناً، ورشاقة، واللاتي كن يلفتن الانتباه في انكلترا.

ولهذا، عندما فتح باب الصالون، كان يمتلىء فضولاً لرؤية المرأة.

كانت أشعة الشمس تتدفق من خلال النوافذ المفتوحة. وللحظة الأولى، ظن أن الخدم قد أخطأوا إذ لم ير أحداً في الغرفة.

لكنه ما لبث أن رأى امرأة في نهاية الغرفة تقف دون حراك محدقة في لوحة للرسام فراغونارد.

أغلق الباب خلفه. وجعلها الصوت تستدير إليه، فوجد نفسه يحدّق في ما بدا له للحظة فتاة صغيرة، ولكنه حين اقترب منها، وجدها أكبر سناً، ولكن ليس بكثير وترتدي ثياب تلميذة قد تكون فوق السادسة عشرة بقليل.

كان قد توقع أن تكون ضيفة الدوق غير عادية، ولكن ليس إلى هذا الحد.

www.rewayti.net

الوجه البيضاوي بعينيه الواسعتين والأنف الصغير، قد ذكره بإحدى لوحات بوتشر والمصورة بريشة فراغونارد.

قال لها بالفرنسية: «أهلاً وسهلاً، هل لي أن أقدم نفسي؟ إنني سكرتير الدوق.»

انحنت يونا قليلاً ثم مدت يدها تصافحه وهي تقول بالانكليزية: «إنني يونا تورو.»

«هل أنت ابنة جوليوس تورو الرسام؟»

«نعم، هذا صحيح.»

فقال: «إذن فيسرّني أن أرحب بك يا آنسة.»

«هل كنت تعرف والدي؟»

«كلا، ولكنني معجب برسومه، وخصوصاً تلك التي اشتراها الدوق مؤخرا.»

فقالت: «لم أكن قد رأيتها أنا نفسي، حتى يوم أمس.»

وعندما رأت الدهشة على وجه السيد بومونت، قالت توضح الأمر: «وصلت أمس إلى باريس لكي أعيش مع... والدي، فوجدت أنه قد... توفي.»

فهتف السيد بومونت: «مات!»

«كانت... الصدمة كبيرة. لقد أخبروني أن السبب كان... حادثاً عارضاً.»

فتمتم يقول: «إنني شديد الأسف لذلك.»

وبدت له على شيء من الضياع. ولم يستطع أن يفهم سبب إحضار الدوق ابنة تورو هذه إلى هنا.

لكنه سرعان ما حدث نفسه بأن هذا ليس من شأنه، وستكون غلطة كبرى في حق الدوق إذا وجده يتدخل في شؤون أحد ضيوفه.

قال لها: «أرجو أن يكون لديك كل ما تحتاجينه، يا آنسة تورو، وإلا، يمكنك أن تقرعي الجرس وتطلبي من أحد الخدم أن يطلبني، وسأكون في خدمتك.»

أجابت: «أشكرك جداً، ولكنني حالياً أستمتع بالنظر إلى هذه الغرفة الجميلة ولوحاتها.»

«إن السيد سيعود خلال نصف ساعة أو نحوها.» قال ذلك وهو ينظر إلى الساعة القائمة فوق رف المدفأة. وعندما خرج، كان يفكر مستغرباً لماذا لم يخبره الدوق عند الافطار بشخصية ضيفته.

وبعد، فلا بد أن يكون ثمة سبب معقول وراء دعوة الدوق لابنة تورو للمكوث في منزله.

كان واضحاً للسيد بومونت أن يونا كانت أكثر من طفلة بقليل ومن الواضح ايضاً أنها سيدة محترمة.

لهذا، فالسبب الوحيد المعقول لدعوة الدوق لها إلى منزله هو مجرد الشهامة لفقدانها والدها.

وقال يحدث نفسه وهو يتصفح بعض الأوراق فوق مكتبه: هناك شيء واحد في الدوق، وهو أنه غالباً ما يفاجئه بأشياء لم يكن يتوقعها قط.»

* * *

كان الدوق وهو يتجوّل في القسم غير المنسّق من منتزه الغابة، كان يستمتع بالجهد الذي كان يبذله في السيطرة على حصانه الجامح، كما أن حرارة الجوّ جعلته يدرك مقدار حكمته في المجيء إلى باريس.

كان يشعر بالحرية فعلم أن ذلك بسبب ابتعاده عن روز،

www.rewayti.net

وهي الآن، على كل حال، عاجزة عن الخصام معه وتكرير طلبها منه بأن يتزوجها.

قال يحدث نفسه: «ثمة ميزة هامة في باريس، وهي أنه ليس على المرء أن يفكر في التقاليد التي تخنقه في لندن.»

كان يشعر بالاشمئزاز البالغ من مجادلات روز المستمرة بأن يجعلها زوجة له.

وعاد يحدث نفسه بأن ليس ثمة شيء يدعوه لأن يجعلها كذلك.

عند ذلك أدرك أنه قد قرر، نهائياً بأن معرفته بالسيدة روز كافرشام قد وصلت إلى النهاية.

وطوال المدة التي استغرقها في نزهته، كانت أفكاره لا تفتأ تعود إلى يونا.

كان يفكر إذا كانت ستبدو في الصباح بمثل الجمال الذي كانت تبدو فيه في الليل. فقد كان من السهل خداعه بعد عشاء جيد وفي أضواء مصابيح الغاز الذهبية المتألقة، ما يجعله يرى أية امرأة أكثر جمالاً مما هي في الحقيقة.

حدث نفسه وهو يسير متجهاً نحو منزله: «سأراها دون شك، عادية الشكل تماماً، ومن طبقة متوسطة نوعاً ما.»

ولكنه وجد من المستحيل أن ينكر تلك الخفقة غير العادية التي شعر بها في قلبه وهو يفكر في رؤيتها مرة أخرى وفي مراقبتها وهي تمثل دور البريئة بمهارة اعترف بأنها غير عادية.

وفكر، للمرة المائة، بأن دوبتشيرون قد درّبها جيداً، وذلك حين تذكر حديث الأمس.

فالمظهر الذي بدت عليه يونا، والطريقة التي تمكنت فيها من جذب اهتمامه دون القيام بأيّ جهد واضح في هذا السبيل، كل ذلك كان خالياً من أي عيب. وراوده خاطر مفاجيء، فحدث نفسه بأنه قد وجد عيباً.

لقد كان دوبتشيرون ماهراً، ولكنه هو اي الدوق، أكثر مهارة منه، حدث نفسه بأن أيّة فتاة بريئة صغيرة السن حقاً، لا بد وأن تشعر بصدمة وهي تذهب إلى مطعم الطاحونة الحمراء لأول مرة.

فقد كان ينظر إلى يونا عندما كانت لاغولا ترقص ليجدها تتفرج على العرض وقد بان الافتتان على ملامحها، تماماً كأية طفلة في مسرحية للأطفال.

ولكن لاغولا لم تكن من النوع الذي يمكن أن يجده المرء في مسرحيات الأطفال. وفي الواقع، كان الدوق قد سبق ورأى لاغولو عند زيارته باريس قبل هذه المرة، وعلم الكثير عنها.

كان اسمها الحقيقي لويز وبير. وكانت من عائلة فقيرة معدمة. وقد ابتدأت مهنتها بالتنقل بين المطاعم والمسارح.

لقد كان دوبتشيرون ورفيقته الصغيرة ماهرين حقاً، ولكن ليس كما يجب.

وعندما اقترب من الشارع الذي كان يسكنه، كان يشعر بالسرور من نفسه، ولكنه صمم على ألا يخبر يونا على الفور بأنه اكتشف امرها.

www.rewayti.net

فرغم أنها لم تستطع أن تخدعه بتصنعها بالبراءة، إلا أنها تثير فضوله، كما أنها أيضاً ابنة تورو.

وهنا، ساور الدوق خاطر مفاجيء هو... ربما كان هذا أيضاً غير صحيح.

لا بد أن دوبتشيرون يتذكر بأن الدوق كان قد اشترى منه في العام الماضي لوحة من رسم تورو. وفي اللحظة التي علم فيها بوصوله إلى باريس، كان ثمة لوحة أخرى بالانتظار.

وهل هناك خطة أكثر مهارة من أن يحضر إليه فتاة كانت على صلة ذات يوم، بالفنان المعجب به؟

وحدث نفسه قائلاً: «تباً لكل هذا، سأقوم بالاستعلام عن تورو.»

وشعر بأن كل هذا يشكل بالنسبة إليه إحدى تلك الأحجيات الصينية التي لا يجد أكثر الناس حلاً لها، وكصبي صغير حصل على لعبة جديدة، أثارته فكرة إرباك الجميع بعرض حلّ هذه الأحجية عليهم.

وأدرك، وهو ينزل عن صهوة حصانه، بأنه متشوّق إلى رؤية يونا مرة أخرى.

كان هذا يشكل تحدياً له. فهو الآن يجند كل ما يملكه من ذكاء في مواجهة رجل وامرأة قد وضعا مؤامرة لجعله ضحية لهما.

حسناً، إنه سيدعهما ينالان ما يريدان، ولكنه أيضاً سيريهما بأنه ليس ذلك المغفل الذي يظنانه.

ناول الخدم في الردهة قبعته وقفازيه وسوطه، ثم سار متجهاً نحو الصالون.

فتح له خادم الباب، وعندما دخل الغرفة ظن لأول وهلة كما سبق وظن السيد بومونت من قبل، بأن لا احد في الغرفة، ثم إذا بها تسرع إليه فرآها، والشمس تتألق على وجهها وشعرها، رآها أجمل مما كانت. وهتفت به مخطوفة الأنفاس: «آه، لشدّ ما أنا مسرورة لعودتك. لقد وجدت شيئاً مثيراً إلى حد لا أملك الصبر لابلاغك به.»

لم تكن هذه هي الطريقة التي كان متوقعاً أن تستقبله بها، فأجاب: «ماذا تعنين بقولك إنك وجدت شيئاً؟»

رفعت يدها تريه شيئاً كانت تحمله، فرأى أنه رسم على ورقة قديمة مصغرة.

أخذها منها، وإذ لم تستطع الصبر، قالت: «لقد وجدتها محشورة في آخر الدرج مع بعض التخطيطات الأخرى، وقد شعرت بأنه من المستحيل أن تكون قد رأيتها في ذلك الموضع وإلا لكنت وضعتها في إطار.»

سألها وهو يرى أن الرسم يمثل بعض اشخاص من العصور القديمة: «ماذا تظنين هذه الصورة؟»

أجابت: «إنني واثقة تقريباً، وربما معلوماتك في هذا الشأن هي أفضل من معلوماتي، من أنها دراسة تمهيدية لرسام تايبولو لإحدى لوحاته الشهيرة.»

أشارت إليها وهي تتابع قائلة: «انظر، يمكنك أن ترى طريقته الخاصة في الرسم، والطريقة التي تجلس فيها فروديت وكيفية رفعها ليدها، كما أن صور كيوبيد تشبه تلك التي كنت قد رأيتها في لوحات اخرى.»

كان في صوتها من الحماسة ما جعل الدوق ينظر إليها بابتسامة هي الأولى التي لم تكن ساخرة أو متهكمة.

www.rewayti.net

كان شعرها يشع كالذهب وهو بالغ النعومة كما شعر الأطفال عادة، لقد رأى أن كل شيء فيها كان مختلفاً تماماً عن الجمال الذي عرفه في النساء الأخريات، ثم أخذ يتساءل كم مضى عليه من الوقت منذ أن سمع لآخر مرة شخصاً يتحدث بمثل تلك الحماسة عن أيّ شيء عدا نفسه.

ثم قال لها: «لا بد أن نتحقق من هذا الأمر لنرى إذا كنت مصيبة في ذلك.»

فقالت: «أرجو أن أكون كذلك. فإذا كنت مخطئة فإنني سأكون بالغة الخجل من نفسي.»

سألها: «وهل هذا الأمر بهذه الأهمية؟»

اجابت بسذاجة: «سأشعر بخيبة أمل كبرى لأنني أكون قد أثرت في نفسك الآمال.»

فقال الدوق باسماً: «تثيرين في نفسي الآمال؟ ولكنه اكتشافك أنت، ومن ثم، إذا كنت على صواب، فإن المجد عند ذلك، سيكون لك أنت.»

قالت فجأة: «ربما كان من الخطأ بالنسبة إليّ، أن أبحث في الدرج، ولكن المنضدة كانت بالغة الجمال، فظننت أن وجودها في غرفة الاستقبال يجعل من غير المهم أن يرى الزائر ما بداخل أدراجها.»

«إنني مسرور لقيامك بذلك.»

«أصحيح هذا؟»

أجاب: «من عادتي أن لا أقول إلا ما أشعر به حقاً.»

فقالت: «لديّ ما... أقترحه عليك.»

رفع حاجبيه بينما تابعت بشيء من التوتر: «لقد فكرت، حين عثرت على هذا التخطيط، انه ربما العمل الذي...

يمكنني مزاولته عندك... وهو أن أسجل... كل الأشياء الموجودة في هذا... المنزل الرائع إنني واثقة من وجود أكوام من النفائس التي كانت قد أخفيت في أمكنة معينة ثم تعرضت للنسيان، وقد يكون بإمكاني العثور عليها لاجلك.»

فقال: «أظنها فكرة جيدة.»

كان واثقاً، وهو يقول ذلك، أن بومونت والذي كان شديد التدقيق في مثل هذه الأمور، كان قد دوّن قائمة مفصّلة بكل ما يحتويه المنزل. ومن المؤكد أن هنالك قائمة بكل المحتويات في منازله الأخرى في انكلترا يقام بفحصها كل عام، وكذلك في منازله خارج انكلترا.

خصوصاً وأن شركات التأمين كانت تصرّ على ذلك. وراوده الشك في أن يونا تعلم ذلك، ولكن دهاءها دفعها إلى البحث عن ذريعة تجعلها تبقى في خدمته.

فقال لها: «ستكونين القيّمة على هذا المنزل، وطبعاً سيكون علينا أن نقدم راتباً.»

فلم تتكلم، وبعد لحظة، سألها: «ما هو رأيك؟ هل لديك فكرة عن ذلك؟»

كان يفكر، وهو يقول هذا، ان ذلك سيكون عذراً وجيهاً تماماً لها لكي تطلب إما راتباً غير معقول، وإما قطعة مجوهرات... قطعة صغيرة طبعاً ستكون مقبولة تماماً...

وأخذ ينظر إليها بدقة وهي تفكر في قوله هذا، لتقول أخيراً: «إنه جواب صعب نوعاً ما، لأنني لم أعش في فرنسا مؤخراً، ولكنني أعرف ما كانت تتلقاه المعلمات اللاتي كن يعملنَ في المدرسة الداخلية.»

www.rewayti.net

فسألها: «وماذا كانت رواتبهن؟»

أجابت: «إذا حوّلت إلى فرنكات، فستكون حوالي ستمائة فرنك في السنة.»

وعندما رأته ينظر إليها بدهشة، أضافت تقول بسرعة: «إنني طبعاً لا أتوقع أن تعطيني راتباً بمثل هذا المبلغ الكبير، ولكن قد يكون ثلاثمائة أو أربعمائة مبلغاً منصفاً.»

كان هذا، بالنقود الانكليزية، أقل من عشرين جنيهاً في العام، وكان الدوق يعلم أنه راتب قد يكون مناسباً لمربية اطفال، لكنه لا يمكن أن يكون أبداً مبلغاً مناسباً لقيم على المنزل حسن الاطلاع.

فقال لها: «قد يكون من الأفضل أن ندع موضوع راتبك هذا جانباً الآن، وطبعاً سيسرني إذا أنت دوّنت أي شيء ترينه ذات قيمة.»

تنهدت يونا ثم قالت: «هذا يعني كل شيء هنا، فأنا لم أر ابداً غرفة من قبل تحتوي على كل هذه النفائس، ويا ليت كان بإمكان والدي رؤية لوحاتك هذه.»

«أتظنينه كان سيعجب بها؟»

أجابت: «إنه طبعاً يرسم بطريقة مختلفة، ولكنه قال مرة إن الفن هو كالنساء... كل رجل يرى فيهن ما يناسب ذوقه.»

فسألها: «ألم يفكر والدك في أن يرسمك يوماً؟»

أجابت: «نعم، عندما كنت فتاة صغيرة جداً، ولكنه لم يرض عن رسمي ذاك، أظنه كان يفضل رسم المناظر الطبيعية، ولكنه كان أحياناً يرسم والدتي في مقدمة الصورة لكي يمنحها، حسب قوله، توازناً.»

كانت تسترجع ذكريات الماضي، ولكنها ما لبثت أن فكرت في أنه ربما من سوء الأدب أن تتكلم كثيراً عن نفسها، فسألته: «هل استمتعت بنزهتك؟»

أجاب: «جداً، وكان منتزه الغابة ممتعاً للغاية ما جعلني أفكر في أن نذهب معاً بالعربة إلى هناك حيث نتناول الغداء في مطعم في الهواء الطلق.»

شبكت يونا يديها معاً، وهتفت: «أتعني ذلك حقاً؟»

أجاب: «إنها دعوة مني لك.»

«وهل سنذهب الآن... حالاً؟»

فقال باسماً: «يجب أن تمنحيني وقتاً كي أغيّر ملابس الركوب هذه، كما أن عليك أن تعتمري قبعة.»

فقالت: «نعم، بالطبع، سأذهب وأستعد حالاً.»

لمعت عيناها وهي تضيف قائلة: «أشكرك لهذه الدعوة، إن الغداء في منتزه الغابة هو أجمل ما يمكنني تصوره.»

اندفعت خارجة من الغرفة، بينما أخذ ينظر خلفها بحيرة، هل من الممكن حقاً أن يكون كل هذا تمثيلاً؟ ولكنه ما لبث أن حدث نفسه بأنه حقاً قد مرّ بأطوار كثيرة ولكن لم يحدث أبداً، باستثناء مرة واحدة، أن صدّق أي شيء رآه بعينيه أو سمعه بأذنيه، دون أن يستعمل ذهنه.

ومع ذلك، فقد كان يبتسم وهو يصعد إلى غرفة نومه، ساعده خادمه الخاص في تغيير ثيابه بينما كان يفكر في أن سيده قد أصبح مزاجه أفضل بكثير مما كان عليه أمس أثناء مجيئه من انكلترا.

كان هذا ما فكر فيه السيد بومونت ايضاً وهو يرى

www.rewayti.net

الدوق يهبط السلم. سأله: «قيل لي انك تريد العربة، يا سيدي.»

أجابه الدوق: «نعم، فسأتناول الغداء في الخارج.»

«هل لديك برنامج لهذا المساء؟»

«ليس حالياً، سأخبرك بما سأقرره في حينه.»

فكر بومونت بأن ليس في نية الدوق أن يكشف له عن أفكاره، ولكنه، هو كذلك ليس في نيته أن يكون فضولياً.

لكن الحديث قد توقف على كل حال، عندما أقبلت يونا بسرعة تهبط السلم.

وكان على رأسها قبعة تشبه بالضبط تلك التي كانت تعتمرها أمس ما عدا أن هذه كانت من القش الأبيض. كان لديها، في الواقع، قبعتين إحداهما هي التي استعملتها أثناء السفر، وكان يحيط بها شريط ابيض يلائم ثوب سفرها، واضافت إليها قطعة من الحرير الوردي كانت قد أهدتها إليها إحدى زميلاتها، وكان تزيين قبعتها قد أخرها، لكنها كانت تشعر بأن عليها أن تماثل، من بعض النواحي، ما كانت تراه من أناقة مظهر الدوق البالغة.

ولم تكن مخطئة، فقد بدا في بنطلونه ومعطفه الصباحي الحسن التفصيل وسترته الأنيقة، من الأناقة ما جعلها تخجل بمظهرها.

على كل حال، لم يكن لديها شيء آخر لترتديه، ولم يكن أمامها سوى الرجاء بأنه ربما لن يلاحظ ملابسها بشكل خاص ولكن الدوق في الواقع، لاحظ كل التفاصيل

فعاد يفكر في مبلغ مهارة البعض في جعل يونا ترتدي هذه الملابس التي كانت جداً مناسبة لدورها.

رأى ثوبها القطني البسيط وكأنه من تصميم خيّاطة غير عادية في مهارتها، ومع قبعتها المصنوعة من القش ووجها الطفولي، كل ذلك بدت معه وكأنها خارجة من معهد الدراسة.

وصلت يونا إلى الردهة وهي تقول لاهثة: «أرجو الا أكون قد جعلت سيادتك تنتظر.»

أجاب: «ليس ثمة من ضرورة للعجلة، ولكن بما أن النهار جميل بهذا الشكل، فمن المؤسف أن نضيع أي جزء منه.»

قالت: «إنه نهار جميل جداً ثم بإمكاني قيادة العربة في المتنزه.»

وعندما شاهدها السيد بومونت، رآها مثالاً لنضارة الصبا. كما فكر في أن أية امرأة أخرى من معارف الدوق كانت ستقول بأنه نهار جميل لأنها ستكون معه في العربة. وتساءل عما إذا كان سيده قد لاحظ الفرق.

في الواقع، كان الدوق قد لاحظ ذلك فعلاً، وحين جلسا جنباً إلى جنب في العربة الأنيقة يقودانها ومعهما سائس قد جلس خلفهما عن مرمى السمع، قال لها: «ألم تذهبي إلى متنزه الغابة من قبل؟»

أجابت: «لم يحدث ذلك منذ مدة طويلة، فقد جئت مرة مع والدتي للتفرج على حديقة الأسماك والنباتات البحرية. ومرة في الشتاء عندما كان هناك متزلجين على الثلج.»

www.rewayti.net

بدا صوتها وكأنه تغير حين قالت: «لا أستطيع أن أصف لك مبلغ الجمال الذي رأيته، كانت هناك زحافات فيها نساء رائعات الجمال يرفعها بهن رجال محترمون وكانت أغصان الأشجار مثقلة بالثلوج، كل هذا جعلني أتمنى لو كنت رسامة.»

قال: «بإمكانك أن تصفي ما رأيته كتابة.»

فسألته: «هل تقول ان عليّ أن أؤلف كتاباً؟»

«ولما لا؟»

أجابت: «سيكون كتاباً مثيراً، وقد أحصل من ورائه على بعض النقود.»

التوت زاويتا فم الدوق، وفكر في أنهما قد أوشكا على الوصول إلى حيث الامتحان.

لكن الدهشة تملكته وهو يرى يونا تغير الموضوع، مشيرة بسرور إلى رجل يحمل بالونات ملوّنة ويقف تحت شجرة كستناء وهما في طريقهما إلى الشانزليزيه.

لم تسنح له فرصة أخرى لامتحانها إلا بعد أن استقرا أمام مائدة في احدى المطاعم المحتشدة والحديثة الطراز.

شعر بأنها لا تكاد تنتبه إليه، وكان هذا أمراً لم يتعوده، ذلك أن المناظر حولها كانت تملأها بالسعادة.

كانت الموائد قد وضعت في حديقة المطعم، وكانت أمامهما بحيرة صغيرة تظللها شجرة مزهرة.

كان الطعام ممتازاً، وأخذت يونا تتمنى لو بامكانها ان تتذكر اصنافه لتتمكن بذلك من طهوه بنفسها فيما بعد.

لكنها ما لبثت أن تذكرت بشيء من الاكتئاب انه ليس هناك

من تطهيه لأجله. فقد كانت واثقة من أنها إذا أعدت بعضاً منه للدوق، فسيتملك الطاهي الذعر. وقد يقدم استقالته، ما سيزعج الدوق أكثر من أي شيء آخر.

قال لها الدوق وهو يرى عينيها على الإوزات التي تسبح فوق صفحة بحيرة المياه الهادئة: «هنالك شيء أريد أن أسألك عنه.»

«وما هو؟»

فقال: «كنت أتساءل عما فكرت فيه عندما رأيت لاغولو ترقص، لا بد أن رقصها قد أدهشك؟»

مضت لحظة لم تجب فيها يونا بشيء، ما جعله يظن أنه ربما أحرجها، فحدث نفسه بأنه كان محقاً، إذ أنه لا مونتشيرون ولا هذه الفتاة قد لاحظا انه لم يصدمها رؤية ذلك، حتى انها لم تتظاهر بإشاحة وجهها عن مثل ذلك العرض، وتساءل كيف عسى أن تتمكن من الخروج من هذا المأزق الذي وضعها فيه بسؤال واحد بسيط.

انتظر جوابها وعينيه مسمرتين على وجهها، وقد عاد يفكر في مبلغ مهارتها في القيام بدورها التمثيلي هذا.

لكنها قالت بعد لحظة: «طالما كان والدي يقول إن لا شيء خطأ في ذلك من الوجهة الفنية.»

فقال: «هذا صحيح، ولكنني أريد أن أعلم عما فكرت فيه بالنسبة إلى لاغولو.»

لقد شعرت في البداية بشيء... من الارتباك لطريقة رقصها ولكنني فكرت بعد ذلك أنه كان أشبه باللوحات التي يرسمها الناس البدائيون، والتي تبدو لنا فجة خشنة، لكنها كانت في الواقع، قد رسمها فنانون توخوا من خلالها إبراز

www.rewayti.net

تصورهم للجمال، كما فعل مايكل انجلو مثلاً أو بوتيسيللي.»

كان الدوق يصغي إليها بانتباه، ثم قال: «استمري.»

«لقد بذل البدائيون ما في وسعهم، والرسوم البدائية تماماً والتي تظهر على جدران الكهوف وفي سراديب الموتى، تمثل منتهى مقدرة الرجال الذين رسموها.»

سألها: «أتريدين القول إن رقص لاغولو هو بدائي، ومع هذا هو أفضل ما بإمكانها تقديمه؟»

فقالت: «ربما لم أستطع أن أوضح كلامي جيداً، ولكنني وأظنك أنت أيضاً كذلك، أفضّل أن أشاهد رقصة باليه رائعة، كانت تلك المرأة تؤدي رقصتها تلك وكأنها تهدف بها إلى شيء لن تتمكن أبداً من الوصول إليه، هو في رأيها اكتمال لفنها.»

كان الدوق يستمع إليها ذاهلاً.

لم يكن يتصور ابداً أن ثمة شخصاً يستطيع أن يضع مثل ذلك التفسير لإداء لاغولو.

ثم سألها بحدة: «من علّمك أن تقولي هذا؟ أهو دوبتشيرون؟»

نظرت إليه بذهول، وأجابت: «كلا بالطبع، إنك تعلم أنه لم تسنح لي فرصة للتحدث مع السيد دوبتشيرون لأننا تركنا المطعم قبله. وعلى كل حال، فهذا ما أشعر به فقط. أهو خطأ؟»

كان في سؤالها هذا قلق بينما عيناها تتفحصان وجهه وكأنها تخشى أن ترى عليه ما ينمّ عن عدم رضى.

فقال ببطء: «كلا... إنه ليس خطأ، ولكنني بصراحة، شعرت بالدهشة إذ لم يصدمك ما رأيته.»

«ولكن... لو كان في ذلك... ما يسبب صدمة لي... فهل كنت ستأخذني... إلى هناك؟»

رأى الدوق في ذلك ما يشبه ردّ الكرة إلى ملعبه، فقال بسرعة: «لقد قررت الذهاب إلى ذلك المطعم قبل أن أجتمع بك.»

فقالت: «إنني مسرورة لذهابي إلى هناك. ولكنني لا أتمنى الذهاب مرة أخرى.»

«لما لا؟»

«لقد كنت أعرف حتى قبل ذهابي إلى هناك، بأن والدتي ما كانت... سترضى لي بذلك. لقد كنت أعرف دوماً أنه مكان ليس للفتيات.»

فقال الدوق: «هناك أمكنة كثيرة مشابهة في باريس. وأرجو ألا تصرّي على القول بأنك لن تزوريها معي.»

أجابت: «سأكون مسرورة... للذهاب معك... إلى أي مكان تريده، ولكنني لا أظنك أعجبت حقاً... برقص لاغولو، أليس كذلك؟»

سألها: «لماذا تطرحين عليّ هذا السؤال؟»

أجابت: «لأنني أشعر بأنك تحب حقاً ما يحيط بك من أشياء جميلة رائعة، فليس هناك من يعيش بين هذه اللوحات الرائعة لأعظم الفنانين، دون أن يقارنها بتلك الاعلانات المعلقة خارج مطعم الطاحونة الحمراء.»

سألها: «وهل انتبهت إليها؟»

أجابت: «نعم، عندما كنا في انتظار العربة.»

www.rewayti.net

«وهل أدركت من رسمها؟»

أومأت قائلة: «إنه تولوز لوتريك، ولأنني رأيته، فهمت لما لم يرسم سوى تلك الإعلانات البسيطة رغم المهارة البالغة المتجلية فيها.»

«أتعنين أن الرسام يعبّر في رسومه عن نفسه؟»

وعندما قال هذا، عادت إلى مخيّلة يونا تلك اللوحة غير الكاملة والتي رأتها على الحامل في مرسم والدها.

لقد كانت تلك اللوحة تمثل ما انتهت إليه نفسيته قبل أن يموت.

أجفلت مذعورة من تلك الفكرة وكأنما لمست ما فيها من بشاعة وشر.

رأى الدوق ما ارتسم على وجهها من معانٍ، فلم يدرك السبب، وحدّث نفسه بأنه يسبب لها القلق والإزعاج، ومرة أخرى لمس ما هي عليه من ذكاء غير عادي بالنسبة إلى امرأة، هذا عدا عن حداثة سنها.

لقد تأكد الآن من أن دوبتشيرون كان وراء ذلك. إنه هو الذي علمها ودرّبها، وهو أحمق إذا ظن لحظة أن فتاة في التاسعة عشرة، هذا إذا صح قولها، تستطيع أن تخوض في حديث كالذي كانا فيه الآن.

لكنه عاد فتساءل عما إذا كان من المحتمل، في الحقيقة أن يدور مثل هذا الحديث، مع أي رجل سواه.

بدا للدوق أن الأحجية الصينية التي أخذ يحاول أن يجد لها حلاً، ليست بالسهولة التي ظنها في البداية. وصمم على أن يجرب معها طريقة أخرى.

سألها: «ماذا تحبين القيام به هذا العصر؟»

سألته: «هل بإمكاننا أن نتنزه... في عربتك؟ إن الجلوس

خلف جيادك الرائعة هذه لهو شيء بهيج، إذ أرى باريس بطريقة لم أتوقع أن أعرفها.»

فقال: «لقد أغفلت أمراً على شيء من الأهمية.»

سألته: «وما هو؟»

«إنك لم تذكري الشخص الذي سيقود العربة.»

بدت عليها الحيرة، وما لبثت أن هتفت قائلة: «أتعني أنه... أنت؟»

«إنني شاعر... بأنك أهملتني نوعاً ما.»

ضحكت وقالت: «وماذا تريدني أن أقول، يا سيدي فأنت من الرقة والشهامة نحوي بحيث صرت أشعر بأنني في حلم، وأرجو أن لا تسأم مني بسرعة.»

فقال: «إنني شبه خائف من أن تكوني قد نسيت وجودي.»

عادت تضحك قائلة: «وكيف يمكنني ذلك؟ إنني دوماً أفكر في أن كل ما يحدث لي هو من الروعة بحيث صرت أخشى أن أستيقظ فجأة لأجد نفسي أنني ما زلت في المدرسة.»

فومضت عينا الدوق وقال: «إنني متشكك، نوعاً ما، بالنسبة لتلك المدرسة.»

فسألته: «متشكك؟»

«كنت دوماً أتصور أن الفتيات القادمات من المدرسة مباشرة هن خجولات في الكلام عادة، وكذلك قصيرات بدينات بسبب الكميات الكبيرة من الطعام الجيد التي يتناولنها.»

فاندفعت تقول: «لقد كنت خجلى عندما رأيتك لأول مرة.»

www.rewayti.net

«لماذا؟»

أجابت: «لا أدري، فأنا عادة غير خجولة بوجه عام. ربما كان ذلك لأنني لا أقابل الكثير من الاشخاص المرموقين... ولكنني لا أظن هذا هو السبب.»

سألها: «ما هو السبب إذن؟»

أجابت ببطء: «ربما لأنك تبدو... في منتهى الروعة، ولكنني أظن ثمة سبب آخر أيضاً.»

فقال: «أخبريني به.»

قالت تشرح له: «كل شخص تصدر عنه... تلميحات معينة. وأنا يمكنني أن أشعر على الفور ما إذا كانت حسنة سارّة... وأحياناً، تكون غريبة صعبة نوعاً ما... فلا أشعر نحوها بأي اهتمام.»

فسألها: «وماذا عن تلميحاتي؟»

«شعرت بأنها... مختلفة عن تلميحات... أي شخص آخر.»

نظرت في عينيه ثم أطلقت صرخة قصيرة وقالت: «إنني أعرف انك ستفكر في أنني أهزء في كلامي، لماذا تجعلني أتكلم عن نفسي في حين انني أريد أن أتكلم عنك وعن باريس؟»

فسألها: «أي منا هو الأهم؟»

«سيكون من عدم التهذيب أن أقول باريس.»

فضحك وقال: «لا أستطيع أن أقرر أي شيء بالنسبة إليك، فأنا ما أنفك أفكر في أنك أروع من أن تكوني حقيقة.»

رأى أنها لم تفهم، ولأنه لم يشأ أن ينبهها بأي شكل إلى ماهية مشاعره الحقيقية، قال: «تعالي، سأريك باريس،

فأنا في الحقيقة، أستمتع بقيادة هذه الجياد، والتي استعرتها من بعض الأصدقاء، فجيادي ستصل غداً أو بعده.»

«هل ستحضر جيادك إلى باريس؟»

«إنني نادراً ما أذهب إلى أي مكان من دونها.»

فهتفت: «ما أروع هذا.» ثم أضافت: «أظن هذا يدلّ على ثراء كبير.»

وفكرت لحظة، ثم تابعت تقول: «لا بد أن امتلاك المرء لكل هذه الأشياء هو باعث على البهجة البالغة من بعض النواحي، ولكن، لنفترض أن هذا غير كافٍ؟»

فسألها: «ما الذي تعنينه بذلك؟»

«أظنني في غاية... الجهل بالكثير مما أقوله، ولكنني قد قرأت الكثير، ودوماً كان يتضح لي بأن الرجال يشعرون بأنهم بحاجة إلى التحدي.» بدت الدهشة في عيني الدوق، ولكنه لم يتكلم.

وتابعت هي: «الرجال بحاجة للقيام بشيء لإنجاز شيء ما ليكونوا منتصرين. وعند ذلك يصبحون أبطالاً يتخذهم الرجال الآخرون مثالاً يقتدون به.»

كانت يونا تتكلم وكأنها تتحدث إلى نفسها، وعندما أجابها الدوق، فكر ساخراً في أنه يلقي بنفس سؤاله للسيد بومونت: «ما الذي تقترحين عليّ للقيام به؟»

أجابت: «إنني لا أعرفك إلى الحدّ الذي يمكنني الاجابة فيه على هذا السؤال، ولكن لأنك بهذه القوة، أشعر أن بإمكانك مضاهاة الكثير من أبطال التاريخ والمشهورين في عالم الرياضة والاكتشاف.»

www.rewayti.net

كان في صوتها شيء ما، جعل من المستحيل عليه أن يضحك. ولكنه قال: «إنك تدهشينني كثيراً، ولكنني أشعر بالزهو لتفكيرك بأنني أهل لإنجاز أمور كهذه إنما أظن أن علينا الذهاب الآن.»

نظرت يونا حولها فأدركت أن الزبائن الذين كانوا يملأون المكان، قد غادروا جميعاً تقريباً.

وقفت بسرعة، وسألته شاعرة بأنها قد اقترفت خطأ اجتماعياً: «كان عليّ... أن أقترح بأن... نخرج.»

أجاب: «كلا، ففي مناسبات كهذه، هذه الأشياء نقررها معاً.»

رأى الارتياح على ملامح وجهها، ولم تقل شيئاً آخر إلا بعد أن غادرا المطعم وانطلقا بالعربة في أنحاء الغابة الرائعة الجمال.

عند ذلك قالت: «عندما تدفعك شهامتك إلى اصطحابي إلى مكان ما، يا سيدي الدوق، فهل لك من فضلك أن تخبرني كيف عليّ التصرف؟ إنني أخاف من ارتكاب الأخطاء.»

فقال يطمئنها: «إنك لم ترتكبي أي خطأ حتى الآن.»

«إنني لم أذهب إلى أي مكان راقٍ من قبل وطبعاً لم يحدث لي وأن جلست مع رجل... مثلك.»

سألها بسرعة: «ومن هم الرجال الذين اعتدت الجلوس معهم؟»

«إنني لم أعرف الكثير، هناك والدي، طبعاً، والرجال الذين اعتادوا القدوم إلى منزلنا عندما كنا نسكن في الريف.»

فكرت قليلاً ثم تابعت تقول: «ثم هناك الطبيب والذي كان

ايطالياً وكان يتظاهر بتعنيفي لأنني لم أكن أمرض أبداً، وأيضاً كان هناك أستاذ الموسيقى.»

سألها: «وكيف كان شكله؟ لقد سمعت قبل الآن عن أساتذة الموسيقى.»

أجابت: «كان عجوزاً جداً جداً، وكان قد سبق له العزف في اوركسترا شهيرة.»

ابتسمت وهي تتابع قائلة: «كانت الفتيات اللاتي كن يسأمن من دروس الموسيقى، يستدرجنه في الحديث عن ذكرياته وهو طفلاً، إلى أن ينتهي الدرس دون أن يعزفن شيئاً.»

فسألها: «وهل فعلت أنت كذلك؟»

أجابت: «كلا، بل كنت متلهفة إلى التعلم، رغم أنني لن أكون أبداً عازفة بيانو جيدة.»

فقال يذكّرها: «ولكنك كنت تتحدثين عن الرجال الذين عرفتهم.»

قالت: «لقد ذكرتهم جميعاً، ما عدا، طبعاً، السيد دوبتشيرون ثم أنت.»

فسألها: «وهل تتوقعين مني أن أصدق ذلك؟»

أجابت: «لا أظنني... نسيت أحداً، هناك طبعاً ساعي البريد وعمال حديقة المدرسة، ورجال الشرطة الذين اعتادوا ايقاف السير لأجلنا عندما نعبر الشارع لزيارة المعارض.»

وحدث الدوق نفسه بأن شخصيتها هي أروع من أن تكون حقيقية.

عند ذلك شعر بأن يونا قد ابتدأت تفتنه، وأنه إذا استمر

www.rewayti.net

هذا، فهو سيصدق كل الحكاية الخرافية من البداية إلى النهاية.

استمر في طريقه يقود العربة لعدة ثوانٍ دون أن يتكلم، وما لبث أن نظر بطرف عينيه ليرى إن كانت تنتظر منه أن يتابع المحادثة.

ولكنه دهش إذ وجدها تحدّق بسرور إلى الأماكن التي كانا يمرّان بها دون أن يبدو عليها على الاطلاق أي انزعاج لفقدانها لانتباهه. وذهل إذ رأى نفسه وقد جرحت كبرياؤه.

وعندما التفتت إليه، سألها: «أين تريدين أن نتناول العشاء هذه الليلة؟»

سألته: «نتعشى؟ هل تعني في المطعم؟»

فقال: «ولما لا؟ أظن هذا سيسرك، وأنا طبعاً أحب أن أتباهى بالسيدة الرائعة الجمال التي ستكون برفقتي.»

سألته: «هل تنوي أن تدعو الآنسة جوايان لتكون ضيفتك؟»

رمقها بنظرة سريعة قبل أن يجيبها قائلاً: «أريد أن نتعشى بمفردنا.»

ساد الصمت للحظات، ثم قالت يونا: «أحب هذا كثيراً، ولكنني أخشى أن لا تشعر بالزهو بصحبتي هذا المساء لأن ليس لديّ سوى الثوب المسائي الذي ارتديته الليلة الماضية.»

لمعت عينا الدوق.

ها قد حانت الفرصة أخيراً والتي طال انتظاره لها.

فقال: «حسناً، هذا أمر سهل، فإذا كانت خزانة ثيابك فارغة، يجب أن نقوم بشيء بهذا الشأن.»

«ماذا... تعني؟»

أجاب: «أعني بأن عليك طبعاً أن تختاري بعض الملابس الجيدة... كل ما يعجبك منها، وأنا سأدفع ثمنها.»

كان يتكلم بخشونة إذ كان يرى أنهما قد قاما بما يكفي من الألاعيب. وكلما أسرعا بالتفاهم، كان ذلك أفضل.

ساد الصمت، ولأنها لم تتكلم التفت إليها مرة أخرى لينظر إلى الوجه الصغير الذي ارتفع إليه.

سألها: «ماذا حدث؟»

أجابت: «لا أظنني... فهمت. هل تقول انك... ستعطيني... شيئاً؟»

أجاب بعدم اهتمام: «أعطيك بقدر ما تشائين من الملابس فلا تخافي أن يجلب ذلك الافلاس لي.»

فقالت بصوت خافت متردد: «إنني واثقة... من أنك تبدي لي... شهامة كبيرة، وهذا كرم بالغ منك... ولكنني لا أستطيع قبول ثوب هدية منك، ولن أستطيع أن اكتسب نقوداً في وقت قريب لكي أستطيع دفع ثمنه بنفسي.»

تردد الدوق وهو يتساءل عما إذا كان ينبغي أن يقول لها كفاك ادعاء، ولكنه عاد فحدث نفسه بأنها قد تستمر في سرية خداعها له.

ولكنه لم يستطع منع نفسه من التفكير بأنها تظن بقولها هذا أن المكافأة ستكون أكبر بكثير مما لو أنها أذعنت بسرعة.

وبدلاً من ذلك قال: «إنك غير شاكرة لي الهدية التي أريد تقديمها لك.»

قالت: «انني لست ناكرة للجميل... ولكن، كما سبق

www.rewayti.net

وقلت... إنك بالغ الشهامة... ولكن هذا لن يكون مناسباً... ولهذا أقول لك شكراً... مرة أخرى... ولكنني لا أستطيع القبول.»

سألها: «لماذا؟ لا أفهم.»

قالت: «كانت والدتي تقول لي دوماً ان السيدة المحترمة يجب ألا تقبل مطلقاً أيّة هدية من رجل.»

لم يصدّق للحظة واحدة أن يونا تنوي حقاً رفض عرضه هذا، وإنما كانت فقط تعلم أنه سيرد اعتراضها هذا.

قال لها: «أظن أن العمل المعقول هو أن نرسل وراء خياط مشهور ونطلب منه تصميم الملابس التي تعبّر عن شخصيتك. وهو، في نفس الوقت، سيزودك بما تلبسينه إلى أن تصبح تلك الملابس جاهزة.»

شبكت يونا يديها معاً وهي تقول: «سأتمكن من شراء ثوب جديد عندما يدفع لي السيد دوبتشيرون ثمن لوحة والدي.»

أطلق الدوق ضحكة قصيرة وقال: «هذا قول غير عملي مطلقاً وأنا لم أكن أظن أنك من الحماقة بحيث تقولينه.»

«حماقة؟»

«لأنك تعلمين، كما أعلم، أن كل قرش قد يصل إلى يدك من لوحات والدك عليك أن تحتفظي بها لليوم الأسود، وهو آت سواء عاجلاً أم آجلاً، أما الآن فأنا مستعد لأن أكون مصدر تمويلك، وعليك ألا ترفضي عرضي هذا.»

فقالت: «لقد حاولت أن... أشرح لك الأمر، وهو أن ذلك شيء غير... مناسب، لقد كانت والدتي تقول إن الفتاة المخطوبة مسموح لها بأن تقبل من خطيبها مروحة فقط

كهدية أو حتى قفازين وذلك في مناسبة ما، وغير هذا سيكون مصدر سوء فهم من كل شخص يعرف بذلك.»

سألها ببطء: «سوء فهم؟ من أيّة ناحية؟»

صمتت يونا للحظات، ثم قالت بتردد: «كانت والدتي ترى أن الفتاة تعتبر... متهتكة إذا هي سمحت لرجل، مهما كانت درجة معرفتها به، بأن يعطيها أي شيء من ثوب أو غيره.»

فقال الدوق: «إذا كانت والدتك تظن ان هذا تهتكاً، ماذا تظنينها ستقول عن مكوثك في منزلي دون مرافقة.»

ساد الصمت من جديد، ثم قالت يونا ببطء: «لم أفكر في ذلك... حتى هذه اللحظة. هل كان... من الخطأ مني أن... أقبل دعوتك؟ لم يكن لديّ مكان آخر أذهب إليه.»

كان في صوتها نبرة ألم، فقال لها: «أنا شخصياً كنت سأعتبر رفضك لدعوتي واضطرارك إلى التفتيش عن مسكن في منتصف الليل، سأعتبر ذلك في منتهى الغباء.»

«وذلك سيكون... مخيفاً للغاية.»

فقال: «والذي يشرب من النهر، لماذا يغص بالساقية؟»

«أتعني... أنه بما أنني أمكث في بيتك... عليّ أن أسمح لك بأن تهديني ثوباً؟»

«ليس ثوباً فقط، بل كل ما تحتاجينه.»

سكتت يونا، ثم قالت: «أرجوك... هل لي أن أفكر في ذلك؟»

أجاب: «طبعاً خذي ما تشائين من الوقت لذلك وربما يمكننا أن نذهب الليلة إلى مكان هادىء، وبهذا لن أخجل بصحبتك أمام الناس.»

www.rewayti.net

عندما قال هذا شعر بأنه تجاوز الحد في كلامه، ولكنه كان قد ابتدأ يسأم من هذا الحديث.

كان يريدها أن تبدو رائعة الجمال، وهي ترتدي احدى تلك الأثواب الباريسية الطراز والتي تنسخها كل نساء العالم.

وحدّث نفسه: «تباً لكل ذلك. لقد حان الوقت لاستلامي القيادة في هذه التمثيلية والتي لا يمكن أن تحدث إلا في باريس، ولكن كان يمكن أن تكتب لممثلين فرنسيين وليس لانكليز.»

الفصل الخامس

تابعا السير لبعض الوقت قبل ان يتكلم الدوق فيسألها: «ماذا تفضلين من الأحجار الكريمة؟»

ويظهر ان يونا كانت تفكر في شيء آخر لأنها اجفلت لدى سماعها صوته.

«احجار كريمة؟»

فقال: «اعني المجوهرات، كل النساء تحب المجوهرات، ولا اظنك مستثناة من هذه القاعدة.»

فكرت يونا لبرهة، ثم قالت: «اظن الفيروز جميلاً جداً، وكانت والدتي تقول ان شعب التيبت والذين لديهم مناجم الفيروز في الجبال، دوماً يحملون قطعة من الفيروز لطرد العين الحاسدة.»

واطلقت ضحكة قصيرة وتابعت تقول: «لا اظنك تخاف من العين الحاسدة، ولكن في الكتب التي قرأتها كانت تعني في القرون الوسطى الكثير من الشر.»

أدرك الدوق على الفور انها عادت مرة أخرى تبتعد عن الموضوع الذي يريد الخوض فيه.

فقال: «إذن، فإذا كان لديك الخيار، فستفضلين الفيروز على غيره؟»

أجابت: «اظنني عند ذلك، ساشعر بأنني محظوظة جداً. ولكن حيث انني مولودة في شهر تموز (يوليو)، اعتقد ان حجر الحظ المتصل بمولدي هو الياقوت.»

www.rewity.com/vb
بلا عنوان
www.rewayti.net

ابتسم الدوق بينه وبين نفسه. ها ان الأمور تتحسن.

وقد اخذت الآن تظهر اهتمامها بالمجوهرات الغالية، فقد كان واثقاً جداً من انه سينتهي بها الأمر بطلب أي شيء.

وتابعت يونا تقول: «ولكنني اظن ان الياقوت نذير شؤوم، وربما افضل الاحجار واجملها هو اللؤلؤ.»

فقال: «ولكن اللؤلؤ جداً غالي.»

قالت: «انني واثقة من ان الجواهر كلها غالية، وهذا هو السبب في انه من غير المحتمل ان يكون لدي أي منها في حياتي.»

تنهدت، ثم تابعت تقول: «لقد كانت والدتي تقول ان ما أسفت لبيعه اكثر من أي شيء آخر، عندما جاءت مع والدي إلى فرنسا، كان الدبوس الماسي الهلالي الشكل الذي كانت والدتها تركته لها في وصيتها.»

كان الدوق يعلم ان المجوهرات الهلالية الشكل وكذلك النجمي منها، كان طرازاً شائعاً بين النساء الانكليزيات، ولكنه كان دوماً يعتقد ان المجوهرات الباريسية هي الأفضل في العالم.

كان لدى والدته اكليل من الجواهر من تصميم اوسكارماسان، وخطر في باله فجأة بأنه سيبدو بالغ الجمال على رأس يونا بالنسبة لصغر سنها.

وكان ماسان صائغاً ماهراً يبتدع أزهاراً من الأحجار الكريمة مثل زنابق الوادي، والنسرين وغير ذلك.

وحدث الدوق نفسه بأن زنابق الوادي في مجموعة أسرته قد تلائم يونا بشكل خاص.

ولأنه كان مما لا يقبله العقل التصور بأنها قد تتزين، يوماً ما، بأي قطعة حلي من مجموعة آل ولستانتن، فقد فكر في أن يشتري لها دبوساً مصنوعاً من زنابق الوادي.

وكذلك صمم على ان يشتري لها أيضاً عقداً من اللؤلؤ، وقال لها: «هل قلت انك تفضلين اللآلىء اكثر من أي شيء آخر؟»

أجابت: «ان ثمة شيئاً افضل ان يكون لدي وذلك اكثر من كل مجوهرات العالم.»

فسألها وقد تملكه الفضول: «وما هو؟»

أجابت: «جياد كهذه التي تقودها الآن والتي أنا واثقة من أنها تماثل ما تملكه انت نفسك.»

تملك الذهول الدوق.

ذلك أنه، مرة أخرى، فشل في اجتذاب انتباهها والذي هو في غاية السهولة بالنسبة إلى أية امرأة أخرى حين يصلان إلى الموضوع الذي لا يمكن مقاومته ألا وهو ما يريد ان يهديها.

سألها: «وإذا كان لديك جواد، فأين ستضعينه؟»

فضحكت يونا بمرح وأجابت: «انني لا اتوقع منك ابداً ان توجه إليه دعوة للمكوث في منزلك كما فعلت معي، وأخاف اذا انا اطلقته وحده يرعى في منتزه الغابة، ان أقع في المتاعب.»

كانت تجعل من كل شيء حكاية خرافية، وعندما أخذ الدوق يفكر في جواب، تابعت تقول: «ربما على الشخص ان يكون لديه حصان غير مرئي، أو على الأقل، يبقى غير مرئي إلى ان يمتطيه.»

www.rewayti.net

فقال شاعراً بان عليه ان يشاركها في تصوراتها: «هذا صحيح، فعندئذ ستحل كل المشاكل.»

«لطالما فكرت في ان من غير العدل ألا يحصل المرء على ما يتمنى.»

فسألها: «وما الذي تتمنينه؟»

أجابت: «قبل كل شيء مرآة اعلقها على الجدار تبين صفات كل من ينظر إليها.»

أجاب: «اظنك قد سبق واخبرتني انه بإمكانك القيام بهذا بنفسك.»

فقالت: «ربما كنت افترض ذلك فقط، ولكنني... احياناً، احب ان اعرف شخصيات الناس اكثر.»

فقال مستهزئاً: «وكيف يمكنك ذلك، وهل لديك فكرة عما في نفسي؟»

ترددت لحظة، ثم قالت: «ربما لن يعجبك ما سأقوله.»

«بل اريد ان اسمع ما تقولين.»

«حسناً، لقد فكرت الليلة الماضية أثناء العشاء، انك كنت تتحدث وتستمع إلى الآخرين، ولكنك في نفس الوقت كنت تراقب فقط دون ان تكون شريكاً حقيقياً فيما يدور.»

وعندما لم يقل شيئاً، هتفت تقول: «ها انني أسيء التعبير مرة أخرى عما اريد قوله حقيقة، ولكن الذي بدا لي هو كأن كل واحد منا كان يمثل على خشبة المسرح بينما انت في مقاعد المتفرجين.»

فقال: «انني لن اخبرك ما اذا كان هذا صحيحاً. ولكنني احب ان اسمع ماذا فكرت فيه أيضاً.»

كان واثقاً، وهو يقول ذلك من ان دوبتشيرون، والذي كان

ماهراً في الحكم على الناس، قد اعطاها ملخصاً لمزاياه قبل ان يصلا إلى العشاء.

والآن اذا بيونا تتردد اكثر مما سبق، قالت بصوت منخفض: «قد اكون مخطئة تماماً... اظنني ربما... ولكن لدي شعوراً بانك... تحاول ان... تقرر شيئاً بالنسبة إلى... نفسك.»

ثم أشاحت بوجهها عنه.

أدرك فجأة ان شعورها لم يكن هو الخجل بالضبط، وانما الحرج لأنها كانت تقول اشياء تصدر عن اعماقها.

كان هذا مذهلاً، ولكنه فكر في انه من الخطأ ان يجهر بذلك، لذا قال فقط: «انك لا توضحين ما تقولين.»

فقالت: «الأمر أيضاً ليس واضحاً بالنسبة إليّ. لقد قال والدي اننا إذا كنا في اعالي الفضاء، يمكننا ان نرى نيويورك وسفينة في الاطلسي ومدينة تشيربورغ في نفس الوقت.»

نظرت بطرف عينيها إلى الدوق لترى إن كان قد ضجر من كلامها، ولكنها عندما رأته يستمع عادت تقول: «فالناس الذين في السفينة يعتقدون انهم تركوا تشيربورغ أمس، بينما نيويورك مازالت على بعد ايام منهم.»

سألها: «وهل انت مهتمة كثيراً بي؟»

أجابت: «طبعاً، اظنك اكثر من رأيت... صعوبة... وتعقيداً... ومثيراً للاهتمام.»

ضحكت، فقال باسماً: «انك تخيفينني، ماذا لو انك اكتشفت انني رجل شرير متنكر؟ ماذا ستفعلين عند ذاك؟»

www.rewayti.net

لم تقل له ان ذلك مستحيل، بل قالت فقط: «سأهرب حتى لا تعود تراني أبداً.»

رأى الدوق انهما قد ابتعدا عن موضوعهما الأساسي ألا وهو نوع الأحجار الكريمة التى تفضلها.

وكانا الآن في طريقهما عائدين إلى المنزل بعد ان انتهت نزهتهما.

قرر فجأة ان افضل طريقة للتعامل مع أية فتاة مراوغة مثل يونا، ان يواجهها بعمل حاسم.

صمم أخيراً أنه بدلاً من أخذها إلى متجر أوسكار ماسان، كما كان ينوي، فسيذهب وحده ويشتري لها هدية، ثم يرى ردة فعلها حينذاك بينما يقدمها إليها.

وهكذا، عندما وصلا، اخبر الخدم بأن يحتفظوا بالعربة امام الباب، ثم تبع يونا إلى الردهة.

تقدم منه المشرف على الغرف وقال: «هناك شخص يريد رؤيتك يا سيدي. فاجلسته في غرفة الانتظار.»

تكهن الدوق بأن ضيفه لا بد أن يكون دوبتشيرون، محضراً معه لوحات تورو التي قد جمعها دون شك من مرسمه في حي مونتمارتر.

تردد لحظة، غير واثق من ان عليه أخذ يونا معه لتتفحصها، ولكنه مالبث ان قرر رؤية تلك اللوحات بمفرده في البداية.

لكن وبينما كان يحاول ان يستقر على رأي، كانت يونا قد اخذت تصعد السلم نحو غرفتها.

وهكذا ابتعد الدوق دون ان يقول شيئاً، متجهاً نحو غرفة الانتظار حيث يقابل عادة، المتعاملين معه امثال دوبتشيرون.

وأثناء سيره، قرر ان يستغل هذه الفرصة حتماً، ليعرف المزيد عن يونا، رغم انه كان مقتنعاً تماماً بأن دوبتشيرون سيحاول ان يلجأ إلى الغموض بالنسبة إليها وإلى ماضيها.

* * *

كانت يونا في منتصف السلم، عندما خطر لها فكرة مفاجئة.

وقفت للحظة دون حراك، ثم استدارت تهبط الدرج من جديد ثم اتجهت إلى الردهة.

قالت لأحد الخدم: «أريد عربة أجرة.»

بدت الدهشة على الخادم، ولكن لم يكن من شأنه ان يلقي أي سؤال، فركض مجتازاً الفناء نحو الشارع ليعود بعد لحظات بعربة مكشوفة يجرها جواد نحيل متعب.

فتح بابها فدخلت يونا، ثم سألها: «إلى أين يا آنسة؟»

«أخبره من فضلك ان يأخذني إلى حي مونتمارتر شارع لابروفيل، رقم ٩.»

أعطى الخادم الأوامر إلى الحوذي، ثم انطلقت بها العربة، وما أن قطعا مسافة لا بأس بها، حتى اخذت تتساءل عما اذا كان ينبغي منها ترك خبراً للدوق بعنوانها.

لقد خطر ببالها انه، مادام السيد دوبتشيرون استطاع ان يحصل من الدوق على مبلغ كبير ثمناً للوحة والدها، فلا بد ان لوحات أخرى بقيت في المرسم بإمكانها بيعها.

وقد ساورها شعور بأن الدوق لن يسمح لها بإنفاق النقود التي دفعها ثمناً للوحة التي اشتراها.

www.rewayti.net

ولكنها اذا قبضت مبلغاً آخر، للوحة أخرى، فستتمكن من شراء ثوب للسهرة، وبهذا لن يخجل الدوق بها.

لقد أدركت انها ضايقته بعدم قبولها ان يشتري لها الملابس الجديدة كما عرض عليها.

كانت واثقة تماماً، مهما كان اعتراضه، بأن والدتها سترى في قبولها هدايا ثمينة ليس فقط من رجل، بل من رجل قد عرفته لتوها، سترى في ذلك ما يستوجب توبيخها العنيف.

لقد كانت والدتها بالغة الكبرياء وقد علمت يونا بأن كون المرء فقيراً لا يشكل جريمة. اما الخطأ فهو ان يدعي المرء بأنه غير ما هو عليه.

كما أوضحت لها بأن في قبولها عطاء الآخرين، دون ان يكون في وسعها الرد بالمثل، فيه انتقاص من احترامها لذاتها.

وقد سمعتها تقول يوماً لزوجها: «ليس بإمكاننا الرد بالمثل فندعوهم إلى منزلنا، ولهذا يا جوليوس، ليس لديّ رغبة في قبول دعوتهم.»

فهتف والدها قائلاً: «هذا موقف سخيف، فهم من الثراء بحيث يمكنهم دعوة نصف سكان باريس إلى العشاء.»

قالت والدتها بسرعة: «ونصف سكان باريس سيقبلون الدعوة، ولهذا نرفض نحن دعوتهم.»

ردّ عليها زوجها بحدة: «جميل طبعاً ان تحيطي نفسك بهالة من العظمة والكياسة، ولكنني بصراحة، لا احب ان يفوتني عشاء فخم كهذا.»

ولم تستمر والدتها في الجدال بهذا الشأن، ولكن يونا

تذكرت بأن والديها لم يذهبا في ذلك الحين إلى حفلة أولئك الأميركيين.

كانت يونا قد قالت لوالدتها فيما بعد: «من المؤسف انكما لم تذهبا، يا والدتي، اذ كانت فرصة لك لترتدي إحدى الأثواب المسائية التي لديك والتي لم ترتديها منذ سنوات.»

فابتسمت أمها قائلة: «لقد اصبح طرازها قديماً الآن، يا حبيبتي، كما انني لا احب ان اعرض نفسي امام احد خصوصاً أمام ذلك النوع من الناس الذين ما كان والدي ليرضى بدعوتهم إلى منزله.»

ومع مرور الزمن، اخذت تفهم معنى الكبرياء الذي لا يقبل عطاء الآخرين إلا اذا كان في امكانه الرد بالمثل.

انها تعلم الآن ان والدتها ستظن بانها تذل نفسها إذا هي سمحت للدوق، مهما بلغت شهامته، بأن يدفع لها ثمن ثيابها.

وحدثت نفسها قائلة انه عليها ان تتعلم الوقوف على قدميها. وانه لا بد هناك طريقة تمكنها من تحصيل بعض النقود بسرعة، فتتمكن من شراء ثوب جديد ان لم يكن لهذا المساء، فلمساء الغد.

وتذكرت ان هناك العديد من الخياطات في شوارع باريس الجانبية يستطعن نسخ اجمل موديلات الملابس من المحلات التي يدعوها الدوق الخيّاطات الشهيرات.»

وحدثت نفسها بأنها إذا استطاعت بيع إحدى لوحات والدها، سيمكنها بذلك الحصول على ثوب جديد جميل. ولن يدهش الدوق فقط لذلك، بل هو سيعجب بها إذ ترتديه.

ثم فكرت بشيء من الكآبة، بأنها تريده حقاً ان يعجب بها، تريده أن يراها جميلة.

www.rewayti.net

ولكنها عندما فكرت في إيفيت جوايان وفي السيدات اللاتي رأتهن في المطعم وفي منتزه الغابة، شعرت بمعنوياتها تنخفض.

كيف بامكانها ان تبدو بمثل اناقتهن؟ هذا إلى انها تعلم ان ملابسهن قد كلفت في الواقع، اكثر مما يمكنها ان تكسب في سنوات وسنوات.

وبدا ليونا انها تلزم نفسها بمهمة صعبة وذلك بمحاولة تقليد أي من تلك النساء، ومع هذا، فقد حدثت نفسها بأن عليها المحاولة.

وما لبثت ان رأت من البعيد حي مونتمارتر فابتهجت نفسها.

صعد الحصان التل ببطء بالغ، وعند ذلك رأت الفنانين، في بذلاتهم المصنوعة من القطيفة، يعملون امام حاملات الرسم، وقد انتشروا في كل زاوية، وعند عتبات الأبواب، وفي الساحة تحت الأشجار كما كانت قد رأتهم من قبل، وبعد ذلك وصلت بها العربة إلى شارع لابريفيل فلاح لها المنزل الذي يحتوي على مرسم والدها، وقد بدا اكثر قذارة وتداعياً مما كان عليه أمس.

قالت يونا للحوذي: «هل لك ان تنتظر من فضلك؟»

فأومأ بالايجاب ظانا بأنه سينال أجراً سخياً بالنظر إلى المكان الذي احضرها منه، بينما أسرعت يونا تنزل إلى الرصيف لتدخل من الباب المفتوح.

صعدت السلم القذر إلى حيث مرسم والدها، ومن ثم دخلت إليه، أول ما لاحظته هو ان بعض التنظيفات قد أجريت منذ اليوم السابق.

كانت كمية كبيرة من المهملات والركام الذي كان مبعثراً في أنحاء المرسم، قد أزيلت، ثم ما ان ادارت رأسها حتى رأت تلاً مرتفعاً من ذلك الركام مكوماً في زاوية رغم انه مازال هناك عدد كبير من الأشياء ينبغي ان تضاف إليه.

سمعت صوتاً يسألها: «من أين أتيت؟»

فقفزت يونا مجفلة إذ لم تكن تعلم ان هناك شخصاً غيرها في المرسم.

وإذا برجل يظهر من وراء حامل رسم كان يستره عن الأعين، ورأت هي أنه كان فناناً.

كان ذلك واضحاً من ملابسه الملطخة بالدهان، ورأت، فوق ربطة العنق الضخمة السوداء، وجهاً لشاب ذي شعر طويل غير مسرح.

وكان يحمل لوحة مزج الألوان في يد، وفرشاة رسم في اليد الأخرى.

أجابته على سؤاله بسؤال من عندها: «هل... استلمت... هذا المرسم؟»

أجاب: «لقد انتقلت إليه هذا الصباح، ورأيت كل هذه الفوضى والقذارة فيه.»

كانت يونا على وشك ان تخبره بأن والدها هو الذي احدث كل هذا، ولكنها عادت فرأت ان هذا قد يجعله يشعر بالحرج، فقالت بدلاً من ذلك: «لم يكن لدي فكرة عن وجود احد هنا، لقد جئت لأرى ان كان مايزال هنا بعض الرسوم لصاحب المرسم الماضي.»

أجاب: «لقد سبق وذهبت جميعاً.»

فقالت بغباء: «ذهبت؟»

www.rewayti.net

قال: «لقد جاء رجلان هذا الصباح وجمعاها، اظن احدهما كان عميلاً.»

فسألته: «اهو السيد دوبتشيرون؟»

«ربما هذا هو اسمه، ولكن عندما لم يهتم بي، لم اجد ما يدعوني إلى الاهتمام به.»

كان الرسام يتكلم بازدراء، وفكرت يونا بعطف بأن السيد دوبتشيرون لم يجد في رسومه ما يستحق البيع.

وعلى كل حال، كان بمثابة كارثة ان تعلم بأن السيد دوبتشيرون كان هنا قبلها، وإذا كان والدها قد ترك المزيد من اللوحات، فسيبيعها لأجلها، ولا شك ان الدوق سيمنعها من ان تنفق ثمنها.

نظرت إلى الركام المتراكم وهي تتساءل عما اذا كان يحتوي على أي شيء ذي قيمة، ولم تنتبه إلى ان الرسام كان يحدّق إليها.

ثم قال لها: «انك جميلة جداً، كما انك لست من الطراز الذي يتوقع المرء ان يجده في حي مونتمارتر.»

نظرت يونا إليه بابتسامة خفيفة مبهمة.

كانت ما تزال تتساءل عما اذا كان ثمة جدوى من التفتيش بين ذلك الركام والقاذورات عما يستحق البيع.

سألها الرسام: «هل سبق لك ان وقفت نموذجاً لرسام؟»

واتسعت عيني يونا، انها فكرة لم تخطر ببالها من قبل.

كانت تسمع بان الفنانين يتخذون نماذج، وكما أخبرت الدوق، كان والدها يطلب من والدتها أن تقف امامه ليرسمها، ولكن لم يخطر لها قط ان هذا شيء يمكنها القيام به.

سألته مترددة: «وهل تعطون النموذج أجراً؟»

أجاب الرسام: «طبعاً، فهي تختار بنفسها من ستجلس امامه وكأنها البطلة الأولى في المسرح.»

كان يتكلم بوحشية تقريباً، وكأنه يعاني المشاكل بينه وبين نماذجه، وقالت يونا: «ايمكنك ان تخبرني الأجر الذي يأخذنه؟»

فضاقت عيناه، وخيل إليها انه ينظر اليها متفحصاً، وكأنه يراها الآن بشكل مختلف.

قال لها بعد لحظة: «اذا كنت ستجلسين لأجلي، فسأدفع لك ضعفي ما ادفعه لتلك الفتاة التي تركتني منذ لحظة في سبيل شيء تقول انه اكثر أهمية.»

وابتسم ليضيف قائلاً: «لا اظنك ستقومين بمثل تلك الحيلة القذرة.»

قالت: «كلا، طبعاً، هل رسمك على وشك الانتهاء؟»

فقال: «تعالي وانظري بنفسك.»

سارت نحوه وهي تتمنى ألا تكون رسومه من نوع رسوم والدها تلك التي كرهتها.

عندما رأتها على الحامل، كانت على كل حال، مختلفة جداً عن كل ما كان يرسمه والدها عندما كانت تعيش معه.

اخذت تحدّق في قماش اللوحة على الحامل، ثم قالت: «اظنك رساماً انطباعياً... رغم انني غير واثقة من ذلك.»

قال: «هذا صحيح، وانا افخر بذلك رغم ما تقوله الصحف من اننا فوضاويين، مجانين، ومجردين من المبادىء الخلقية.»

www.rewayti.net

أضافت على أقواله: «وقد وصفوهم أيضاً بأنهم اعداء الفن الفرنسي.»

قال الفنان الشاب بوحشية: «انهم يقولون كل ما يخطر ببالهم، ان ما يزعج الجميع هو اننا نختلف عن غيرنا.»

كانت يونا تعرف ان هذا صحيح، وكانت دوماً تفكر في انه من السخافة ان يقول أي شخص بأن هناك طريقة صحيحة لرسم شجرة أو حقل أو جدول.

كان أبوها يرسم بطريقة مختلفة عن تلك الصور التي كانت قد رأتها في معارض الفنون وأدركت أن الرواد الكبار للحركة الانطباعية لديهم رؤية جديدة لكل شيء يرونه.

وحدثت نفسها بأن ما كانت درسته في معارض فلورنسا الشهيرة للفنون لم تمنحها في الحقيقة، بصيرة نافذة في الفن الانطباعي.

وعلى كل حال، لم تستطع ان تمنع نفسها من الشعور بأن جهد هذا الرسام الشاب لا يحتوي على لمسة الفنان الأصيل والتي يمكن تمييزها في اكثر الرسوم من أي عصر جاءت.

كانت تدرك ان الانطباعيين قد منحوا لرسوماتهم ضوءاً وحياة جديدة، ولكن هذا القماش المشدود على الحامل لا يبدو عديم الحياة فقط، وانما بضبابية غير واضحة، ولكنها رأت خطوطاً مبهمة لامرأة في المقدمة لم تتوضح معالمها بعد.

وكأنها ألقت سؤالاً، اجابها الفنان: «لقد محوت ما سبق ورسمته، فأنالا اريد تلك المرأة الآن حتى ولو توسلت إليّ.»

«لا بد انها اغضبتك كثيراً.»

أجاب: «نعم، ولكن هكذا هن النساء.»

فقالت: «لسن جميعهن هكذا، كما أرجو، ولكنني أدرك بأنه من المزعج ان يفقد الرسام نموذجه عندما يكون الرسم واضح في الخيال.»

كانت تعلم ان الفنانين، عندما يبدأون في الرسم، يعملون عادة كوالدها. فقد كان ينسى الوقت والتعب والجوع، بينما المنظر الذي يريد نقله، امامه.

قال الفنان متجهماً: «من الأفضل ان اشرع من البداية، فمن الخطأ دوماًان يحاول الرسام اكمال رسم كان قد ابتدأ به في مكان ما، ثم انتقل إلى مكان آخر.»

فسألته: «هل لديك مرسم آخر في مونتمارتر؟»

أجاب: «كان لدي زاوية في مرسم. ولكنني طردت منه هذا الصباح. وهذا هو السبب في مجيئي إلى هنا.»

نظر خلفه إلى اكوام الركام التي كانت وراءهما. «ان المكان هذا مروّع علي ان اتمكن من تنظيفه.»

ودّعت يونا عندها الرسام الشاب وخرجت من المبنى لتصعد العربة التي كانت بانتظارها لتعيدها إلى منزل الدوق.

* * *

دخل الدوق إلى غرفة الانتظار فوجد كما توقع، فيليب دوبتشيرون وبجانبه كومة من اللوحات.

كان على شفتيه ابتسامة ضايقت الدوق اذ كان يدرك ان الرجل الفرنسي كان يفكر في ان خطته تسير بنجاح وانه قد وجد يونا سارة كما كان يتوقع.

عندما اغلق الخادم الباب، لم يتقدم الدوق لمصافحة

www.rewayti.net

الرجل الفرنسي وانما اجتاز الغرفة نحو تلك اللوحات الموضوعة على الأرض بجانب كرسي، وسأله: «هل وجدت المزيد من اعمال تورو؟»

«نعم، يا سيدي. ولكن غالبيتها مع الأسف، رسوم تخطيطية، ولكنها ممتعة، واكثرها تبشر بأن انجازه الأخير كان حسناً دون شك.»

ولم يكن في نية فيليب دوبتشيرون ان يخبر الدوق عن اللوحة التي كان جوليوس تورو يقوم برسمها عندما مات، والتي كانت الآن في معرضه تنتظر لكي تحرق.

لقد كان قد أدرك، مثل يونا، بانها تكشف عن فنان بدأ بالتراجع في فنه فجعل من فرشاته تتخبط في الألوان على غير هدى.

انتظر الدوق، بينما كان دوبتشيرون يتساءل عما اذا كان ثمة خطأ في سير الأمور وهو يلتقط اللوحات من حيث كانت على الأرض، ثم يضعها على الأريكة، حيث كان ضوء النهار ينصب عليها من النافذة.

لم يكن بينها سوى واحدة اهتم بها الدوق اذ رأى على الفور بأنها لوحة غير كاملة ليونا وهي طفلة.

لقد استطاع ان يفهم لماذا قالت له ان والدها لم يكن مسروراً من هذه الصورة.

في خلفية الصورة، كان هناك منزل صغير جميل افترض انه كان بيتها.

خطر بباله على الفور، ان إحدى شكوكه كانت دون اساس. ذلك ان يونا هي فعلاً ابنة جولياس تورو. واخذ يحدق في الصورة لبعض الوقت وهو يتساءل فيما لو هناك

أمراً آخر اخبرته به كان صحيحاً، وعما إذا كان، في الحقيقة، قد أساء الحكم عليها منذ البداية.

وإذا به يرى شيئاً في موقف دوبتشيرون، الابتسامة على شفتيه، واللمعان في عينيه والذي كان الدوق واثقاً من انه لمعان الطمع، ما جعله مرة أخرى متأكداً من ان ثمة فخاً قد نصب له.

وقال له: «ان هذه المجموعة ليست جيدة تماماً.»

كان قد عاد إلى طبيعته الانعزالية الباردة المسيطرة، والتي كانت عادة فيه حين يكون مع اشخاص لا يحبهم ويريد ان يؤكد شخصيته ومركزه.

جعله هذا يبدو مختلفاً جداً، كما رآه دوبتشيرون، عن ذلك المضيف الرقيق الذي كان عليه في الليلة الماضية.

أجاب دوبتشيرون: «هذه اللوحات مع الأسف، كل ما استطعت العثور عليه في مرسم تورو، يا سيدي، رغم انه قد يكون هناك المزيد من رسومه ملقى في مكان ما في مونتمارتر. والعثور عليها يستغرق بعض الوقت.»

كان يقول هذا وهو يشعر بأنه بعيد الاحتمال، ولكنه كان يريد ان يحافظ على اهتمام الدوق.

وإذ رأى عيني الدوق مسمرتين على اللوحة التي كانت تمثل يونا وهي طفلة، قال له: «ربما بامكان الآنسة تورو ان تعلم ما إذا كان أي من لوحات والدها موضوعة في مخزن ما بعد وفاة والدتها. فقد كان بعد إرسال يونا إلى المدرسة ان باع والدها البيت في القرية وانتقل إلى مونتمارتر.»

فقال الدوق: «هذا يعني انها لم تره منذ ذلك الحين، ولهذا فمن غير المحتمل ان تعلم ما فعل أثناء غيابها.»

www.rewayti.net

قال دوبتشيرون معترفاً: «هذا صحيح، ولكن بإمكاننا ان نسألها، على كل حال.»

فقال الدوق: «نعم. يمكننا أن نسألها.»

وفكر لحظة قبل ان يقول: «لقد اخبرتني انك قابلت الآنسة تورو أمس فقط، عندما عادت إلى باريس وعلمت ان أباها قد مات.»

أجاب دوبتشيرون: «هذا صحيح.»

وتساءل إلى ما كان إليه الدوق، ولأول مرة فهم انه متشكك، ولكن لم تكن لديه فكرة عن السبب، وتابع الدوق يقول: «وكان من حسن الحظ وجودك هناك في اللحظة المناسبة بالضبط.»

أجاب فيليب دوبتشيرون: «كان حظاً حسناً للغاية بالنسبة للسيدة الصغيرة في الواقع، فسيادتك تعلم كما اعلم، ان فتاة بهذا الجمال، خصوصاً في مونتمارتر، ستواجه المتاعب.»

أومأ الدوق برأسه موافقاً.

تابع دوبتشيرون يقول: «القصص الكثيرة التي تروى عن الفنانين الشبان، وخصوصاً الانطباعيين منهم، ليست دون اساس، فاخلاقهم، اكسبت الفن سمعة سيئة، ما جعل من الصعب للغاية بيع رسومهم أو رسوم غيرهم من الفنانين المحدثين.»

قال الدوق ببرود: «انني واثق من انك تتدبر أمرك.»

«انني اتدبر أمري، كما تقول يا سيدي، ولكنني اقوم بكل شيء لكل شخص، وهذا يطرح السؤال عما اذا كان بامكاني مساعدتك في أي أمر كان.»

بهت الدوق وكأن ما قاله خارج عن موضوع البحث، ولحظ دوبتشيرون ذلك شاعراً بأنه قد تسرع في كلامه، فقد كانت إحدى ميزاته الذكية، هي انه كان يعرف متى يتكلم ومتى يصمت.

فإذا لم يتجاوب الزبون على الفور مع اقتراح مبهم بما قد يهمه، فهو لا يلح عليه أبداً، وانما ينتظر، ذلك انه تعلم من خبرته الطويلة، بأن الزبون ذاك، لا بد سينساق إلى الاعلان عما يريده سواء عاجلاً أم آجلاً دون ان يكون عليه هو ان يقوم بأي شيء في هذا السبيل.

وكأن الدوق قد قرر ألا يستمر في هذا الحديث، قال: «أحب ان ترى الآنسة تورو هذه اللوحات، بحيث ان ذلك من حقها، فقد تريد ان تحتفظ بها لنفسها، فهي بصراحة لا تهمني.»

فقال دوبتشيرون: «انني متفهم لذلك، هل اترك هذه الرسوم إذن لسيادتك، ثم اعود فيما بعد؟»

«كلا، كلا، سأطلب منها ان تراها الآن.»

فقد خطر في بال الدوق انه قد يعلم المزيد عن هذين الشخصين وعن العلاقة التي تربط بينهما، اذا هو رآهما معاً. ذلك انه في الليلة الماضية كان يراقب يونا وليس دوبيتشيرون. فهو يفكر الآن في ان يراقبهما معاً ولا شك في انه سيكتشف شيئاً ما لم ينتبه إليه من قبل.

وهكذا خرج من الغرفة متجهاً إلى الردهة حيث قال لأحد الخدم: «اصعد إلى غرفة الآنسة تورو واخبرها ان تأتي إليّ في غرفة الانتظار.»

«لقد خرجت الآنسة يا سيدي.»

«خرجت؟»

www.rewayti.net

قطب الدوق جبينه، ثم قال: «اعني السيدة الشابة التي عادت معي الآن فقط.»

«نعم يا سيدي. لقد خرجت منذ عدة دقائق.»

«ولكن هذا مستحيل، فقد صعدت السلم إلى غرفتها.»

«وصلت إلى منتصف السلم فقط يا سيدي، ثم عادت فنزلت وطلبت من جاك ان يحضر لها عربة عمومية.»

سأل الدوق بقية الخدم الواقفين في الردهة: «من منكم جاك.»

تقدم إليه واحد منهم قائلاً: «انا هو جاك يا سيدي.»

«هل احضرت عربة للآنسة؟»

«نعم يا سيدي.»

«هل اخبرتك إلى اين كانت تريد الذهاب؟»

«نعم يا سيدي.»

«وماذا كان العنوان؟»

«تسعة شارع لابريفيل، وهو في حي مونتمارتر.» كان الدوق يعلم ذلك، فوقف لحظة جامداً في مكانه، ثم قال بحدة: «احضر لي قبعتي.»

وضعها على رأسه، ثم خرج إلى الفناء.

كانت عربته في الانتظار حسب أوامره. فصعد اليها واخذ اللجام من الخادم الذي ألقى بنفسه في الخلف، ثم انطلق إلى الشارع.

اخذ يحث جياده على السرعة بشكل كان سيدهش سائسيه في لندن حتماً لو انهم رأوه. ذلك انه لم يكن بحاجة إلى ان يعلم من دوبتشيرون بالخطر الذي قد تتعرض إليه يونا في حي مونتمارتر.

واذا كان سكرتيره يعلم ان نهاية القرن قد غيرت من أوضاع وسلوك الفرنسيين، فقد كان الدوق يعلم ذلك أيضاً.

ولكنه ما لبث ان حدث نفسه بأنه سخيف حقاً، ذلك ان من غير المحتمل ان تتعرض يونا في مرسم والدها لأي أذى.

ولكن، كان هناك أمور الفساد الأخرى الشائعة والتي كان واثقاً من انها في جهل تام بها.

كيف يمكن لفتاة مثل يونا، إذا كانت بالبراءة التي تتظاهر بها، ان يكون لها علم بالأحابيل والأمور المرعبة التي تترصدها وراء كل منعطف؟

لم يستطع التصديق انه من الممكن ان تكون حسب قول الخادم، قد ذهبت وحدها إلى مرسم والدها.

قد تنجو مرة، كالمرة السابقة دون شك، اما ان تتوقع ذلك للمرة الثانية، فهذا كثير. وساق الدوق الجوادين بسرعة صعوداً في تل مونتمارتر، وما ان دخل إلى الردهة المعتمة ورأى السلم القذر امامه، حتى حدث نفسه بأن مخاوفه كانت دون اساس، ولم يكن قد فاتته رؤية عربة الأجرة الواقفة خارج البناء فتكهن بأنها التي جاءت بها يونا من منزله إلى مونتمارتر.

وحدث نفسه بأنه مغفل إذ ينخدع بفتاة لم يعرفها سوى أمس.

ولأول مرة، تساءل عما عسى ان يقول دوبتشيرون وهو يراه يغادر المنزل دون تفسير.

ولأنه رأى نفسه احمق إذ يتصرف بهذا الشكل الذي يخالف ما اعتاده من عدم مبالاة بالآخرين ومشاعرهم، صعد السلم بترفع وازدراء وهو يحدث نفسه بأنه إذا وجد

www.rewayti.net

يونا فسيتحدث اليها بحدة بالغة يلومها لإساءتها إلى ضيافته لها في منزله وذلك بتركها له بمثل ذلك الشكل السخيف.

ولكنه ما ان وصل إلى منتصف السلم حتى رآها تخرج من خلال الباب المفتوح جزئياً.

قالت حالما رأته أمامها: «ابعدني من هنا... ابعدني من هنا.»

وانكمش الفنان متراجعاً وهو يقول بصوت مزيج من التهجم والاسترضاء: «أهي فتاتك؟ كان عليك ان تحافظ عليها بشكل افضل.»

أجاب الدوق: «معك حق.»

استدار وقد جذب يونا بيدها إلى خارج المرسم ثم قال: «لا بأس عليك. سآخذك إلى البيت. كان عليك ألا تأتي أبداً إلى هنا.»

كان من المستحيل عليها أن تجيبه.

وساعدها في الصعود إلى العربة، ثم نقد صاحب عربة الأجرة قطعة نقدية.

وعندما انطلقت بهما العربة، قالت: «لقد... نسيت قبعتي في المرسم.»

ابتسم الدوق وقال: «عليك إذن ان تعودي دون قبعة، أو تدعيني اشتري لك واحدة غيرها.»

قالت بصوت بالغ الخفوت: «انا.. انا شديدة الأسف، و... ولكنني لم... لم اكن اعلم ان... احداً هناك.»

«لماذا ذهبت إلى المرسم؟»

«ظننت... ربما أجد هناك... بعض رسوم والدي فاتمكن

من بيعها لأشتري... ثوباً جديداً... كما تريدني ان افعل.»

كانت كلماتها مفككة متباعدة لم يستطع الدوق سماعها الا بصعوبة فقال بعد لحظة: «ألم تتوقعي وجود أحد هناك؟»

«ك... كلا، ذلك الفنان... انتقل إلى المرسم هذا الصباح... فقط.»

لم يتكلم الدوق. وبعد لحظة تابعت تقول: «ارادني... ارادني ان اجلس امامه... ليرسمني، ففكرت في ان... اقبل ذلك... مادام سيدفع أجراً... ولكنني... تراجعت عن هذه الفكرة... في اللحظة الأخيرة.»

تملكت الدوق الدهشة، ولكنه عاد فحدث نفسه بأن كلامها هذا قد لا يكون صحيحاً.

قال لها بحدة: «لقد كان والدك فناناً ولا بد انه كان يرسم النساء.»

أجابت: «والدتي... فقط، انه لم يرسم غيرها...»

أخذ الدوق يفكر في الأمر، افترض انه إذا لم تكن يونا قد سبق وذهبت إلى مرسم، فهي لم تكن تتوقع ان تجلس المرأة النموذج امام الرسام ليرسمها.

وحدث نفسه بغضب انه ما كان لهذا ان يحدث.

وإذا بصوت ساخر في نفسه يسأله عما إذا كانت حقاً حمقاء إلى درجة تزج نفسها في هذا الموقف الصعب.

ولكن المخاوف التي ساورته وهو في طريقه إلى مونتمارتر كانت ماتزال في اعماقه. فقال لها بصوت مختلف: «اسمعي يا يونا، انصتي إليّ جيداً.»

رفعت رأسها، وخيل إليه ان عينيها الدامعتين لم

www.rewayti.net

يجعلانها فقط تبدو كطفلة، وانما أيضاً مثيرة للشفقة إلى حد بالغ.

تابع يقول: «انك لن تخرجي، وهذا أمر مني، انك لن تخرجي مرة أخرى في باريس بمفردك، اتسمعين؟»

فقالت: «لقد فكرت في الحقيقة، انه كان ينبغي مني ان اخبرك بمكان ذهابي، ولكن لو انني وجدت... بعض رسوم والدي، لكان بامكاني ان... اشتري ثوباً جديداً. أردته ان يكون مفاجأة لك.»

«إذن فهذا هو سبب ذهابك إلى مونتمارتر؟»

«لقد اردتك ان تراني... جميلة.»

«يا للطفلة السخيفة، انك جميلة طبعاً، يجب ان تعلمي انك جميلة جداً، اجمل من أية امرأة رأيتها منذ زمن طويل.»

فكر في انها في الواقع، اجمل امرأة رآها على الاطلاق، لكنه لم يشأ ان يقول اكثر من هذا أو ان يورط نفسه، ورأى يونا تنظر إليه بعينين متسعتين وقد اشرقت ملامحها بشكل لم ير مثله في حياته.

سألته: «اتعني ذلك... حقاً؟ هل حقاً، وبصدق، تظنني جميلة؟»

أجاب: «حقاً وبصدق، وبصفتك ابنة فنان، ستفهمين انه لأنني أراك جميلة، سأعطيك إطاراً يبرز جمالك هذا.»

«ظننت انه... من المستحيل عليك.. ان تعجب بي، بعد ان رأيت تلك النساء الجميلات في المطعم هذا النهار، وأيضاً كم كانت الآنسة إيفيت جوايان تبدو جميلة الليلة الماضية.»

«اعتقد ان والدك هو من قال انه كما هناك انواع من

الرسم، هنالك انواع من النساء، ولحسن الحظ ان للرجال انواع مختلفة من الذوق.»

شبكت يونا يديها معاً، ثم سألته بشيء من الخجل: «اذا... اذا انا تناولت العشاء معك هذه الليلة مرتدية الثوب الوحيد الذي لدي... الن تخجل بي... امام الناس؟»

قال: «كان ذلك القول مني غير لائق في الحقيقة. وبصراحة، لقد قلته لكي اجعلك تقبلين الهدية من الملابس التي أردت ان اقدمها إليك.»

«ولكنك قلت... قلت انه بإمكاني ان... افكر بذلك.»

«اذا كان ما فعلته هو نتيجة تفكيرك، فأنا افضل إذن ان تتوقفي عن التفكير وتتركي الأمر لي.»

أجابت: «وهذا... هذا ما كان ينبغي لي... ان افعل، ولكن...»

فقال: «هل تخبرينني انه مازال هناك كلمة ولكن؟»

قالت: «احب ان... افكر ملياً في ذلك. ثم ان يكون لي الوقت لأن أجد... الجواب بعد أن أؤدي الصلاة.»

سألها: «هل هذا ما تقومين به عادة؟»

أومأت برأسها وأجابت: «اذا بدأت بالصلاة لفترة طويلة... ثم طلبت شيئاً... فأنا عادة أدرك تماماً ما علي ان فعل.»

«حسناً، إذن أرجو ان تدركي انك بحاجة إلى بعض الملابس.»

قال الدوق ذلك بجفاء، ولكنه رأى وجهها يتضرج احمراراً. قالت بعد لحظة: «ربما اذا اشتريت لي ثوباً... واحداً فقط... وليس غالي الثمن... لن تغضب والدتي مني.»

www.rewayti.net

قال: «اظن عليك ان تختاري بين غضب والدتك والتي هي غير موجودة معنا، وبين غضبي أنا، ان الأمر راجع إليك لمن تتوخين ارضائه.»

التفتت إليه، وقالت: «ارجوك. لا يمكنني تحمل خصامك لي... بعد ان كنت معي غاية في اللطف والرقة... وسيكون حصولي على ثوب جديد، أمراً مفرحاً... مفرحاً للغاية.»

تملك الدوق شعور مفاجىء بالانتصار، لقد انتصر في نقاش غير عادي وشاق للغاية.

لكن، ما ان حدق في عيني يونا المرتفعتين إليه، ورأى التعبير الذي يملأهما، فكر في ان هذا الانتصار كان، رغم كل شيء، فارغاً.

الفصل السادس

أوقف الدوق العربة في فناء منزله فترجلت منها يونا شاعرة بأن الخدم يحدقون في عينيها الدامعتين ملاحظين أيضاً انها دون قبعة.

سار بها الدوق إلى الصالون، وما أن أغلق الباب خلفهما حتى قال: «سأسكب لك كوباً من عصير البرتقال، فأنت بحاجة إليه بعد كل الذي جرى لك.»

فقالت متلعثمة: «أنا... أنا آسفة.»

قال: «ليس الذنب ذنبك. كان يجب أن يحذرك بعض الناس من التجوال في باريس بمفردك.»

فقالت بصوت خافت: «ولكنني... وحيدة.»

سكب لها كوباً من العصير وحمله إليها حيث كانت واقفة بجانب المدفأة.

بدت له جميلة جداً بالرغم من الدموع التي تبلل وجنتيها والتعاسة التي تكسو ملامح وجهها.

كان يعلم أن أية امرأة أخرى ممن عرفهن، لو كانت مكانها لكانت الآن أمام المرآة تصلح من شأنها ومنظرها.

تناولت يونا الكوب منه وهي تسأله: «هل أنت... غاضب... مني؟»

أجاب: «كلا، مطلقاً. ولكن عليك أن تتذكري في المستقبل بأنه من الحكمة أن تخبريني بما تنوين عمله وذلك قبل القيام به.»

www.rewayti.net

«ولكنك... قد لا تكون... هنا.»

أجاب: «هذا شيء أريد التحدث به معك، ولكن ليس الآن، فأمامنا المساء بطوله.»

رفعت بصرها إليه وقد لمعت عيناها، ثم سألته: «أما زلت تريد أخذي... إلى العشاء في الخارج؟»

أجاب: «سيخيب أملي جداً لو تناولت العشاء وحدي.»

التقت عيناها بعينيه. ولم تفهم لماذا أخذ قلبها يخفق دون أن تستطيع في الوقت نفسه من تحويل نظراتها عنه.

بقي الدوق صامتاً لحظة وكأنه كان يفكر في شيء ما، ثم قال: «لدي رسوم أريد أن أريك إياها وأظنك ربما تحبين رؤيتها مرة أخرى. انتظريني هنا.»

غادر الصالون إلى غرفة الانتظار التي وجدها خالية، ولكن رسوم جوليوس تورو كانت ما تزال موضوعة على الأريكة.

بعد أن أخذ اللوحة التي يريد، قال له المشرف على المنزل: «لقد غادر السيد، يا سيدي، قائلاً بأنه سيحضر مرة أخرى في الوقت المناسب.»

أومأ الدوق برأسه ثم عاد إلى الصالون.

نظرت يونا إليه متسائلة، وعندما رفع اللوحة أمامها صرخت قائلة: «هل حصلت عليها، هل حصلت على لوحة والدي؟ هذه ما أردت الحصول عليها عندما ذهبت إلى المرسم.»

أجاب: «لو كنت سألتني لأخبرتك أنها هنا في انتظارك.» لكنه كان يبتسم وما قاله لم يكن بشكل توبيخ.

حملت يونا الرسم بيديها الاثنتين وسارت نحو النافذة، وهي تقول: «لقد كنت في التاسعة من عمري عندما رسم والدي هذه اللوحة، ولكنه لم ينهها قط.»

سألها: «وما السبب؟»

أجابت: «لقد قال إنها عادية تماماً. كما أنني كنت... نموذجاً رديئاً... فأنا لم أكن لأمتنع عن الحركة.»

نظرت أثناء كلامها إلى الدوق، فضحك وكأنهما كانا يشتركان في نكتة خاصة.

سألها مشيراً إلى المنزل في خلفية الصورة: «هل كان هذا بيتكم؟»

أجابت: «نعم. وكان أجمل بكثير مما يبدو عليه هنا. فوالدي لم يرسم النباتات التي كانت معرشة على أحد جدرانه، ولا الورود التي كان شذاها يعبق في الغرف.»

كان صوتها ناعماً وهي تستعيد ذكرياتها، فسألها الدوق: «هل كنتم سعداء هناك؟»

«سعداء جداً. فقد كانت والدتي تحول كل شيء إلى مرح رغم أننا كنا فقراء جداً.»

سكتت قليلاً، ثم قالت بصوت خافت: «ولكن ليس بدرجة الفقر الذي... أنا فيه الآن.»

«يونا...»

في هذه اللحظة، فتح الباب وارتفع صوت الخادم معلناً: «اللورد ستانتون، يا سيدي.»

التفت الدوق بدهشة وكذلك يونا، إلى الباب حيث برز منه رجل متوسط العمر أحمر الوجه ذو شارب أسود. وهو

www.rewayti.net

يهتف: «مرحباً يا بلايز. يدهشني أن أراك، لم تكن لدي فكرة أنك في باريس.»

سار الدوق نحو القادم يصافحه مكرهاً وهو يقول ببرود: «لقد وصلت أمس.»

فقال اللورد ستانتون: «حسناً، هذا من حسن حظي، لأنه بامكانك أن تستضيفني الليلة، فقد فاتني القطار إلى نيس بفارق خمس دقائق. وهذا أمر مزعج تماماً.»

قال الدوق: «إنه مزعج بالتأكيد.»

«فكرت في أن منزلك قد يكون مفتوحاً فأمضي فيه هذه الليلة. وعلى كل حال، عندما وصلت أخبروننني بأنك موجود. وكان هذا من حسن حظي.»

ضحك اللورد ستانتون من كل قلبه وكأنه ألقى بنكتة.

ثم تحولت عيناه إلى يونا.

كان واضحاً أن اللورد ستانتون ينتظر التعرف إليها، عند ذلك قال الدوق: «اقدم إليك ابن عمي اللورد ستانتون... أقدم إليك الآنسة يونا تورو.»

تقدم اللورد ستانتون نحوها وقال: «يسرني التعرف إليك.»

فبدا شيء من الخجل على يونا لهذا الاطراء، بينما قال الدوق: «لقد كنت، والآنسة تورو، نتأمل اللوحة التي كان قد رسمها لها والدها.»

قال اللورد ستانتون: «دعني أراها.» هتف وهو ينظر إلى اللوحة من فوق كتف يونا: «أهذه أنت؟ حسناً، لقد كبرت منذ ان رسمها لك، كما أنك أصبحت أجمل بكثير.»

ضحك مرة أخرى، ونظرت يونا إلى الدوق بشيء من الضيق، فقال لها: «أظنك ستذهبين لتغيير ثيابك. إننا سنخرج حوالي الثامنة.»

«ما أجمل... هذا.»

وضعت اللوحة على الكرسي، ومنحت اللورد ستانتون ابتسامة صغيرة مهذبة، ثم اتجهت نحو الباب.

عندما أصبح الرجلان وحدهما، قال للدوق: «ما أحسن ذوقك في النساء، يا بلايز. منذ وقت طويل لم أر فتاة في جمالها. ثم إنها انكليزية.»

جمد الدوق في مكانه، وقال: «الأمر ليس كما تظن، يا برتي. إن الآنسة تورو مجرد ضيفة هنا. وأنا من المعجبين برسم والدها.»

لكزه اللورد ستانتون بمرفقه وقال: «وبابنته أيضاً؟ حسناً، إنني لا ألومك. فهي من نوع مختلف تماماً عن روز.»

قال الدوق وقد ازداد صوته برودا: «لقد سبق وقلت لك بأن ما تظنه ليس صحيحاً. فالآنسة تورو صغيرة جداً، وأنت تعلم جيداً أنني لا أهتم بالشابات حديثات السن.»

عندما أنهى حديثه قرع الجرس وهو يقول: «سأخبرهم بأن يجهزوا لك غرفة. أتريد أن تتناول العشاء هنا؟»

أجاب: «آه، كلا طبعاً. فلن أتعشى وحدي في باريس. سأبحث في مفكرتي عن صديق أو اثنين لأخرج معهما.»

فقال له الدوق بنفس اللهجة الباردة: «أرجو لك سهرة ممتعة.»

www.rewayti.net

أقبل الخادم في هذه اللحظة ليتلقى منه الأوامر. وبعد أن تم ترتيب كل شيء لمبيت اللورد ستانتون، ذهب الدوق إلى مكتب سكرتيره السيد بومونت.

وقف هذا لرؤيته، ثم قال: «لم أكن أعلم انك قد عدت يا سيدي.»

أجاب: «إنني لم أعد فقط، بل هناك أيضاً حضور برتي ستانتون الذي طلب أن يبيت الليلة هنا.»

هتف السيد بومونت: «اللورد ستانتون؟»

فقال الدوق غاضباً: «أظنني أعطيت الأوامر الصارمة بأنني لا أريد مضايقة من الزائرين.»

وعندما رأى الذعر يرتسم على ملامح سكرتيره، أضاف يقول: «لا أظن الذنب ذنبك في ذلك، أو ذنب الخدم. إنني أعرف طبع برتي. فهو يقتحم قصر باكينغهام الملكي إذا شاء.»

قال السيد بومونت: «لا أملك سوى تقديم الاعتذار.»

قال الدوق: «تباً لهذا الازعاج، ولكنه سيسافر إلى نيس عند الصباح، وأريد منك أن تجعله يستقل أول قطار.»

«سأفعل ذلك حتماً.»

ثم، وعندما تحول الدوق بغية الخروج، قال له: «ثمة رسالة لك وصلت لتوها من السفارة الانكليزية. لقد جاءت بالحقيبة الدبلوماسية.»

سلمها إلى الدوق الذي نظر إليها وقد ساوره نوع من التوجس، ثم ما لبث أن فتحها وقرأ مضمونها ببطء، بينما كان بومونت ينتظر. مرت فترة صمت طويلة قال الدوق بعدها: «هل تعلم ما في هذه الرسالة؟»

أجابت بومونت: «وكيف لي ذلك؟»

«إنها من رئيس الوزراء. يخبرني سراً، بأن الملكة طلبت مقابلته في خلال ثلاثة أيام لمناقشة تعيين نائب ملك جديد في ايرلندا. وهو يريد أن يقدم اسمي إليها.»

فقال بومونت: «لا يسعني إلا أن أقدم إليك تهنئتي القلبية، يا سيدي الدوق.»

قال الدوق: «ولكنني لم أقل إنني سأقبل ذلك.»

«لكنها وظيفة يمكنك تأديتها بشكل يدعو إلى الاعجاب، ولعلك تذكر ما سبق وقلته لك من أنك تقف الآن على مفترق الطرق.»

عاد الدوق ينظر إلى الرسالة ويعيد قراءة الحاشية التي لم ينكرها للسيد بومونت.

كانت الحاشية تقول: «من المحتمل أن تثير الملكة النقطة التي تقول انه من المعتاد والأفضل أن يكون نائب الملك متزوجاً. ولكنني أتصور أنها مشكلة من السهل حلها في المستقبل القريب.»

كان الدوق يعلم أن رئيس الوزراء كان يشير إلى أن كل شخص في المجتمع اللندني كان يتوقع منذ مدة، أن يعلن خطبته للسيدة روز كافرشام.

وحيث أنه لا ينوي الزواج منها، فسيشكل هذا عذراً ممتازاً لرفضه للتعيين.

لكنه لم يستطع تجنب التفكير في أن رئيس الوزراء يريده أن يوافق.

أدرك أن خطابه الذي ألقاه مؤخراً في مجلس اللوردات، تم سخاءه في مساندة الحرب مادياً، ثم كون رئيس الوزراء

www.rewayti.net

كان غالباً ما يستشيره في قضايا مختلفة، كل هذا دخل في عين الاعتبار.

وخطر له فجأة أنه إذا رفض، فسيشعر بأنه قد خان صداقة يقدرها ويحترمها.

انتبه إلى أن السيد بومونت ما زال ينتظر رأيه. فقال له وهو يضع الرسالة في جيبه: «سأفكر في ذلك. فالأمر من الأهمية بحيث ينبغي عدم التسرع في الجواب.»

قال السيد بومونت: «هذا طبيعي يا سيدي الدوق. ولكنني أظن بما أن المركز الذي ستحتله في ايرلندا سيكون صعباً، فهو سيشكل تحدياً لك تستمتع به.»

قال الدوق يحدث نفسه وهو يصعد السلم قاصداً غرفته: «إنه تحد آخر. يبدو أن لا نهاية للتحديات.»

* * *

جلست يونا في المطعم الذي أحضرها الدوق إليه وهي تفكر أن أجمل ما حدث لها في حياتها، هو تناولها العشاء الآن وحدها مع الدوق.

عندما كانت تغير ثيابها لتناول العشاء، كانت أولاً، تشعر بالقلق بالنسبة إلى ثوبها، آملة بأن يأخذها إلى مكان بالغ الهدوء فلا تشعر بالخجل من نفسها.

وثانياً، كانت خائفة من ألا يتناولا العشاء بمفردهما بل في حفلة كما حدث في الليلة الماضية.

شعرت بأن الدوق قد يكون متوجباً عليه دعوة ابن عمه اللورد ستانتون، لكي يتناول العشاء معهما. وأحست أن ذلك سيفسد عليهما كل شيء.

وحدثت نفسها، لشد ما هو رائع.

أرادت أن تتحدث إليه، أن تكون معه دون أن يكون هناك آخرون يستمعون إلى حديثهما.

عندما هبطت السلم قاصدة الصالون، وجدت الدوق وحده وكان يبدو رائعاً في ملابس المساء.

لم تدرك أن وجهها قد شع سروراً لكونها وجدت مخاوفها دون أساس، وعندما اتجهت إلى الدوق رأته يبتسم لها.

عندما كانت يونا ترتدي ثيابها، عرضت عليها الخادمة أن تصفف لها شعرها، فقبلت شاكرة.

وعندما كانت جالسة، أمام منضدة الزينة، سمعت نقراً على الباب، وإذ بالخادمة تعود وفي يدها باقة صغيرة للزينة من زهور الأوركيد، ثم تقول لها باسمة: «هذه باقة للزينة، يا آنسة.»

هتفت يونا سروراً: «هذا ما أريده بالضبط.»

أخذت الباقة من يد الخادمة وهي تسأل: «هل أضعها على كتفي؟»

«لماذا ليس في شعرك، يا آنسة؟»

هتفت يونا: «يا لها من فكرة حسنة. إنها تظهرني بالغة الأناقة.»

لكن باقة الأوركيد في شعرها لم تفعل شيء سوى أن جعلتها تبدو أشبه بملكة الربيع.

فكر الدوق وهو يراها بأن كل أكاليل الجواهر في مجموعة مجوهرات آل ولستانتون لا يمكن أن تجعلها أجمل مما تجعلها هذه الزهرات.

www.rewayti.net

وعندما وصلت إلى جانبه، قالت: «أشكرك لهذه الزهرات الجميلة. هل لك من فضلك أن تنظر إليها وليس إلى ثوبي الذي لا يعجبك؟»

أجاب: «سأجد من الصعب علي أن أنظر إلى أي شيء سوى وجهك.»

دهشت، وعندما التقت عيناها بعينيه، شعرت بالخجل الشديد.

قال: «العربة في الانتظار، سآخذك إلى مكان هادىء ليس لأنني أخجل من مظهرك، ولكن لأنني أريد أن أتحدث معك.»

فهتفت: «هذا أجمل ما يمكنك أن تقوله لي.»

عندما وصلا إلى مطعم غراند فيفور، شعرت بأنه بالضبط نوع الأمكنة التي تحب أن تكون فيها مع الدوق، وليس بمكان يضجّ بالموسيقى التي قد تمنعها من سماع كل ما يقوله لها.

كانت الجدران مزينة بالرسوم والمرايا الواسعة والأرائك المريحة. وكان المطعم معروفاً بطعامه اللذيذ.

وبينما استغرق اختيار الدوق لأنواع الطعام وقتاً طويلاً، أخذت يونا تنظر حولهما مسرورة.

أخيراً، التفت إليها باسماً وقال: «والآن لم يعد لدينا أي شيء لنقوم به عدا أن نمتع أنفسنا.»

أجابت: «وهذا ما أقوم به فعلاً. ما أجمل أن أكون معك هنا... وحدنا.»

أجاب:

«لم يكن لدي نية في أن أقيم حفلة. فإذا كنت تحبين

الذهاب إلى مكان للتسلية فيما بعد، فإن لدي عدداً كبيراً من الأمكنة يمكنك أن تختاري منها.»

«أريد فقط أن أكون في مكان هادىء.»

قالت ذلك بصوت يحوي نبرة اخلاص عميق، جعل الدوق يتساءل عما إذا كانت تعني ذلك على النحو الذي يريده منها، أم أنه فقط مجرد تعبير طفولي ينم عن السرور الذي كانت تظهره طيلة السهرة.

عندما كان يغير ملابسه للعشاء، كان قد أدرك أن كل الشكوك التي كانت تراوده نحوها قد تلاشت تقريباً.

لقد كانت ابنة جوليوس تورو دون شك.

وهو قد ابتدأ يصدق، رغم بقايا ريبة في نفسه، أنها حقاً قابلت دوبتشيرون لأول مرة منذ وصولها من فلورنسا.

فإذا كان الأمر كذلك، فبراءتها ونقاءها إذن ليسا مجرد تمثيل.

وحدث نفسه بأنه سيتحدث إليها هذه الليلة، وسيتأكد فيما إذا كان من الضروري أن يستمر في شكوكه.

فإذا كان الأمر كذلك، فسيبرز عدد كبير من المشكلات.

ومع هذا، بقي في ذهنه سؤال.

أترى تصرفها المراوغ في الابتعاد عن أي تقارب بينهما أثناء النهار، كان مقصوداً؟

أم أن ذلك لا يعود أنها من البراءة بحيث لم تكن تدرك بأي شكل، ما هو المنتظر منها؟

وكان هناك أيضاً مشكلة أخرى، كما رأى، وهي أن يونا إذا كانت وحيدة حقاً، كما قالت إنها ستكون عندما يعود إلى انكلترا، فهل سيعتبر نفسه غير مخطىء في

www.rewayti.net

تركها تحت وصاية من تدعوه صديقاً لها، أي فيليب دوبتشيرون؟

كان يدرك جيداً كيف سيستغلها هذا الرجل كما حاول معه.

تساءل وهو بجانبها في المطعم، عما إذا كان هناك امرأة أخرى بهذا النقاء والبراءة المتجلية فيها.

تكلما عن أشياء تافهة، وذلك أثناء تناولهما مختلف أنواع الطعام التي وجدت يونا نفسها أزاءها شديدة الجوع.

وأخيراً، بعد أن انتهيا من تناول القهوة، قال: «يمكننا الآن أن نتحدث عن أنفسنا، وهذا يعني، في الدرجة الأولى عنك.»

فقالت: «ليس لدي الكثير عن نفسي... لأخبرك به. بينما لديك الكثير جداً.»

سكتت لحظة ثم أضافت تقول: «لقد شعرت لتوي، وقد يبدو ذلك حماقة، بأنك كنت تفكر في أمر مختلف. أمر هو أكثر أهمية من عشائك.»

«يبدو هذا وكأنني كنت فظاً جافاً.»

فقالت: «كلا، أبداً. بل كنت تبدو أكثر رقة ولطفاً من أي شخص آخر عرفته من قبل.»

«ما الذي تقولينه لي إذن؟»

«إنه مجرد شعور يساورني سبق وحدثتك عنه.»

«إنك فتاة مدهشة.»

سكت لحظة ثم عاد يقول: «أظن من حقك أن أخبرك بأن شعورك هذا صحيح تماماً وأن ما تتوقعينه قد حدث.»

فسألته: «حدث؟»

«نعم، فقد تلقيت اليوم رسالة من رئيس الوزراء.»

«رئيس وزراء انكلترا؟»

«نعم، الماركيز ساليسبوري.»

انتظرت يونا بينما تابع هو: «لقد اقترح أن أكون نائب الملك الجديد في ايرلندا.»

كررت كلامه برهبة: «نائب الملك؟»

فتابع يقول: «إن ذلك طبعاً إطراء كبير منه لي خصوصاً أنني لا أماثل نواب الملك، عادة، بكبر سنهم.»

«وهل ستسافر إلى ايرلندا على الفور؟»

قال: «إنني لم أوافق بعد على هذا التعيين. ولكنني أتصور أن نائب الملك سيتقاعد، ولكن الملكة لا تريد أن تنتظر طويلاً قبل أن تعين بديلاً له.»

فقالت: «إنني واثقة من أنك الشخص المناسب لذلك المركز.»

سألها: «وما الذي يجعلك تقولين ذلك؟»

أجابت: «لقد قرأت عن ايرلندا ومشاكلها وما تعانيه من متاعب. وأظن أنه إذا كان بمقدور أحد أن يساعدهم على تخطي هذه المتاعب، فهو أنت.»

نظر الدوق إليها بدهشة.

لم يكن قد توقع منها أن تعرف شيئاً عن مشاكل ايرلندا، ثم قال: «إنك تعرفين طبعاً، بأنني إذا سافرت إلى ايرلندا، فسيكون علينا، أنت وأنا، أن نفترق. فأنا لا أستطيع الوصول إلى ديبلين وبرفقتي فتاة شابة.»

قالت: «هذا صحيح. لا يمكنك ذلك.»

www.rewayti.net

فسألها: «ومع ذلك تحثينني على قبول ذلك المركز؟»

أشاحت بوجهها عنه، وأدرك أنها لا تريده أن يرى ما ارتسم في عينيها من مشاعر.

قالت: «إذا كنت... الشخص المناسب لايرلندا، وأنا... واثقة من أنك كذلك، فواجبك إذن... أن تقبل باقتراح رئيس الوزراء.»

«أتراك تفكرين بي؟»

«طبعاً.»

«وما الذي ستفعلينه أنت؟»

أجابت: «سأعثر على... مكان أذهب إليه. ولكنني لا أريد أن أكون وحدي... في باريس.»

قال بخشونة: «سواء كنت تريدين أم لا، فهذا شيء لا ينبغي أن يحدث. إنني سأقوم بترتيب لأجلك، وربما ستأتين إلى انكلترا.»

كان يقول هذا وهو يتساءل عما عسى هذا الترتيب أن يكون، وبجانب هذا، هل وجود يونا في انكلترا سيجعل الامر أفضل بالنسبة إليها؟

فهو يراها من الجمال وحداثة السن ما لا يمكن معه أن ترعى نفسها بنفسها.

وكأنما أحست يونا بقلقه عليها، قالت بسرعة: «أرجوك... يجب ألا تفكر بي... فإنك لا تعرفني إلا منذ وقت قصير جداً... وقد كنت معي في غاية الشهامة والتفهم.»

جذبت نفساً عميقاً ثم تابعت تقول: «عندما تغادر باريس، سأطلب من السيد دوبتشيرون أن يجد لي نزلاً أو

مسكناً هادئاً حيث يمكنني الاقامة، إلى أن أجد لنفسي... عملاً ما.»

وعندما أتت على ذكر دوبتشيرون، والذي يبدو أنه الشخص الوحيد الذي يمكنها اللجوء إليه، شعر الدوق بأنه سيكون قد اقترف جرماً إذا هو تركها بين يدي رجل مثله.

وحدث نفسه بأن هذا الشعور لم يتملكه قط نحو امرأة من قبل.

لكن يونا كانت شيئاً آخر. لقد كانت بالغة الضعف، وصغر السن. كما أنها كانت جميلة إلى حد لا يصدق.

ودون أن يختار كلماته، قال بشيء من الوحشية: «أفضل ما يمكنني عمله هو أن أنسى ايرلندا وأتفرغ لرعايتك. انك لا تدرين كم أنت بحاجة لمن يعتني بأمرك.»

جعلتها لهجته تنظر إليه بذهول بالغ. ثم قالت: «ولكن... يجب عليك طبعاً ألا تفكر... بأمر كهذا وما أهميتي أنا بجانب أن تكون... نائب الملك في ايرلندا.»

ثم، وكأنها شعرت بأن معرفتها به قد أصبحت أكثر جدية مما يجب، أضافت تقول: «إذا كنت سأبعدك عن تسيير أمورك، فسأرحل إذن... غداً. لقد اعتادت والدتي أن تقول بأن ليس هناك من هو أكثر مجلبة للتعب والسأم من الزائر الذي لا يغادر بعد انتهاء فترة الضيافة.»

فسألها: «هل تظنين أن هذا ينطبق عليك؟»

ومرة أخرى، وجدت صعوبة في النظر إليه، وأخيراً قالت: «لقد قلت لي ان والدتي لن ترضى عن بقائي معك دون

www.rewayti.net

مرافقة، وقد فكرت هذا المساء... أن هذا هو رأي... ابن عمك اللورد ستانتون، أيضاً.»

قال الدوق غاضباً: «لا دخل لابن عمي في ما نفعله أو لا نفعله. لقد أخبرت بومونت بأنني لا أريد أن يزعجني أي زائر، ولكنه دخل رغم الجميع. إنها عادته دوماً، وليس بيننا شيء مشترك.»

«ولكنه ابن عمك.»

أجاب: «بالضبط. وهذا هو السبب في أنني، عندما يدخل إلى بيتي، لا أستطيع أن أطرده طالباً منه التفتيش عن مكان آخر لينزل فيه. ولكنه سيرحل غداً، ومن ثم ننسى أمره.»

قالت: «ولكن اللورد ستانتون هو... ابن عمك... وللأقارب امتيازات خاصة.»

فقال: «المشكلة مع أقاربي هي أنه لدي الكثير منهم.»

قالت: «إنك محظوظ، فأنا ليس لي أحد.»

خطر بباله، فجأة، أنها عادت مرة أخرى لتمثيل دور اليتيمة الصغيرة الفقيرة والتي ليس لها مكان تذهب إليه والتي تبالغ في تمثيل ذلك الدور.

تابعت يونا تقول: «لقد فقد والدي كل اتصال بأسرته وذلك بعد أن غادر انكلترا. أما عائلة والدتي فقد غضبوا منها لأنها تزوجت من والدي فلم يتكلموا معها مرة أخرى.»

فقال: «إذن فأنت وحيدة حقاً، باستثناء أنني هنا.»

قالت: «إنك تعلم كم انني أشكرك على ذلك. فلو...»

فقاطعها قائلاً بسرعة: «لا داعي لذلك ودعينا لا نفكر إلا أننا هنا معاً الآن، وإننا في باريس، مدينة المرح والضحك.»

سألته: «هل تعرف ما الذي أحب أن أفعله الآن؟»

«ما هو؟»

«أحب أن أرى باريس في الليل.» وإذ رأت ما ارتسم على وجه الدوق، أضافت تقول: كلا، ليس أماكن اللهو مثل مطعم الطاحونة الحمراء. لم أكن أعني ذلك.»

فسألها: «ما الذي كنت تعنينه إذن؟»

أجابت بمذلة: «قد يسبب لك الضجر إذا نحن سرنا في العربة على ضفاف السين ورأينا ساحة الكونكورد المضاءة والشانزيليزيه... سيكون كل ذلك جميلاً جداً.»

نظرت إليه لترى ردة الفعل عنده، وعندما رأته يبتسم قالت: «هل أنت واثق تماماً من أن ذلك لن يسبب لك... سأم؟»

أجاب: «أتصور أن لا شيء أحب إلي من ذلك. ويمكننا أن نجعل الخادم يكشف لنا غطاء العربة.»

عندما رأى البهجة على وجهها، قال: «لا أدري إذا كان، بعد مرور سنوات، هذه الفكرة لديك عن رؤية باريس في الليل ستبقى على ما هي عليه الآن.»

«أتعني أنني عندما أصبح أكبر سناً، سأحب... القيام بأشياء... أخرى؟»

«نعم، هذا ما كنت أقوله.»

«وهل كبر السن يمنع من التمتع بالجمال الطبيعي أكثر من الجمال الاصطناعي؟»

«هذا لا مناص منه بالنسبة لبعض الناس.»

فقالت: «أرجو إذن ألا أصبح كذلك. لقد ظننت وأنا أغادر

www.rewayti.net

فلورنسا، أن رؤيتي لباريس ستملأني بهجة، ولكنني، عندما كنا في مطعم الطاحونة الحمراء الليلة الماضية، أدركت أنها لم تكن أبداً... كما كنت أتصور. وفي الواقع، رأيت ذلك بشعاً... ومخيفاً نوعاً ما.»

فقال: «من المؤكد أن الطاحونة الحمراء ليست بالمطعم الذي يناسبك أن تذهبي إليه في باريس. هناك أماكن أخرى مختلفة عنه. وطبعاً، في مثل عمرك، يجب أن تذهبي إلى الحفلات العادية.»

«إنني أفضل كثيراً أن... أتحدث معك.»

فقال باسماً: «وهذا غير مسموح لك به اجتماعياً بصفتك صغيرة السن.»

«ولما لا؟»

«لأن الفتيات الصغيرات حسنات التربية يبقين بمعزل عن الرجال إلى أن يتزوجن.»

سألته بلهجة عملية: «ولكن كيف يتزوجن إذا كان لا يسمح لهن بمقابلة الرجال؟»

فقال: «الزواج في انكلترا كما هو في فرنسا، كما ولا بد تعلمين، يتم بالاتفاق مع أهل العروسين.»

تنهدت وهي تقول: «سيخيفني هذا جداً إلا إذا أحببت شخصاً كما أحبت والدتي والدي.»

ولكن الدوق لم يكن يرى في الزواج الموضوع الذي يريد أن يتحدث به مع يونا.

ودون أن يجيب على جملتها الأخيرة، طلب الفاتورة من النادل ثم دفعها بالاضافة إلى هبة كبيرة. ما شكل المجموع مبلغاً رأته باهظاً. وشعرت بالحرج لكونها كلفته

كل ذلك، لكنها منعت نفسها من أن تقول له هذا، ظناً منها أن ذلك ينم عن سوء أدب.

بدأت تفكر أنه بالرغم من قول الدوق وافصاحه بعدم رغبته في استقبال الزوار في منزله، فقد تعمد السيد دوبتشيرون أن يفرضها عليه فرضاً.

فمجرد ايداعه لحقيبتها في المنزل حين ذهبوا إلى مطعم الطاحونة الحمراء، كانت إشارة صريحة إلى أن ليس لديها مكان تذهب إليه.

وحدثت نفسها قائلة: لقد فات الأوان الآن. ولكن كان علي أن أصر على السيد دوبتشيرون بأن يخبرني بما كان يخططه بالنسبة إلي، وذلك قبل أن نذهب إلى منزل الدوق للعشاء.

لقد أدركت أنها انجرفت مع الأحداث منذ اللحظة التي عاد بها السيد دوبتشيرون إلى المرسم ليخبرها بأنه باع لوحة والدها.

وخطر لها، بينما كانت تدخل العربة، التي كانت تنتظرهما في الخارج، أنه عندما يعود الدوق إلى انكلترا لكي يستلم مركزه كنائب للملك، ستصبح وحيدة من جديد، وسيكون الأمر مخيفاً جداً.

كان غطاء العربة قد كشف إلى الخلف فوضع الخادم ستار من الفراء على كل منهما، وسرعان ما انطلقت بهما العربة.

نظر إليها طويلاً وهو يتساءل لماذا يكون لمثل هذه الشابة الصغيرة مثل هذا التأثير على نفسه وهو الذي لم يعرفها من قبل.

www.rewayti.net

ذلك أنه لم يتعود مطلقاً معاملة أية امرأة يتعرف إليها بمثل هذه الرقة.

ولكن الدوق كان من الخبرة بحيث أدرك أن الطريقة التي كانت تنظر بها إليه لم تكن تحتوي على الثقة به فقط، وإنما تدل أيضاً على اعجاب واضح.

ووجد نفسه يتساءل عما تشعر به نحوه غير ذلك، وحيره هذا الأمر وزاده فضولاً.

خطر في باله فجأة أن أكثر ما يأسر اللب ويثير الفضول هو أن يوقظ في يونا مشاعر الحب.

ولكنه الآن قد أخذ يفكر في أنه قد يكون مخطئاً إذا هو لم يحدثها عن شعوره نحوها.

كانا قد وصلا إلى ساحة الكونكورد حيث كانت المصابيح تلقي بأضوائها على مياه النافورات فتقذف هذه بمياهها عالياً وقد تلألأت بألوان شبيهة بألوان قوس القزح.

هتفت: «ما أجمل هذا.»

فأجاب: «وكذلك أنت. أخبريني يا يونا، بما تشعرين به ليس بالنسبة إلى باريس وإنما بالنسبة إليّ.»

التفتت نحوه، عند ذلك أمسك بيدها ونظر عميقاً في عينيها.

أدرك أنه أثار الدهشة في نفسها، وبعد لحظة قالت بصوت مرتجف: «لقد خيل إلي اليوم أنك الفارس المغوار الذي... جاء لينقذني.»

فقال: «وهذا ما أريد أن أكونه. لكنني أظن الفتيات اللاتي يقعن في المآزق، يرحبن بمنقذهن مهما كان شكله.»

«إنك تعلم... كم أنا... شاكرة لك.»

«يمكنك أن تمنحي الشكر لأي شخص. أنظري في أعماقك واخبريني بما تشعرين به نحوي.»

فقالت: «إنك تعلم بأنني أراك... أروع رجل عرفته. وأنك ذكي جداً... ورقيق جداً... ثم إنك...»

وسكتت.

فقال يستحثها: «ثم إنني ماذا؟»

أجابت: «أنك الشخص المناسب تماماً... لمركز نائب الملك في ايرلندا.»

فقال: «لقد سبق وأخبرتك أنه علي البقاء.»

أجابت: «حين قلت ذلك كنت تمزح فقط. إنني سأكون بخير.»

فسألها: «وكيف يمكنني التأكد من ذلك؟»

أجابت: «يمكنني أن... أكتب إليك. فهذا سيجعل الأمر... أسهل من أن... أفقدك كلياً.»

«وهل أنت راضية بأن تفقديني؟»

أجابت: «لست... راضية. إن رحيلك سيكون... فظيعاً... ولكنه سيبقى في ذاكرتي... كل ما قمنا به... معاً وكل ما قلته لي.»

فقال: «يمكنني أن أفكر في أشياء أفضل من تلك التي حدثت بيننا حتى الآن.»

فأدارت يونا رأسها وهي تقول: «أشعر بأنني الآن... آمنة. أظنني في الواقع خائفة من... كوني وحيدة... ودوماً أحدث نفسي... بأنه علي أن... أتشجع لأتمكن من رعاية... نفسي بنفسي... كل ما في الأمر هو أنني... لا أعرف من أين أبدأ.»

www.rewayti.net

خطر في بال الدوق أن يأخذها معه إلى انكلترا ويبقيها في منزل يحتوي على كل وسائل الراحة فتكون بهذا في أمان، ويمضي هو أوقات عطلاته معها.

واستمر في التفكير في أنه ربما فيما بعد، سيكون بإمكانه أن يأخذها إلى ايرلندا. وسيجد حجة لجعلها تسكن بقربه.

لكنه ما لبث أن حدث نفسه بأنها حتى ولو وافقت بالعيش معه بهذه الشروط، فمن المؤكد أن ذلك سيسبب فضيحة سواءً عاجلاً أم آجلاً.

فالصحف تكتشف وتنشر كل شيء، وهذا لن يؤذي يونا فقط، وإنما يدمر سمعته وسمعة التاج البريطاني الذي عينه.

سأل نفسه بحيرة عما عساه أن يفعل.

شعر بأنه مهما حدث، ومهما كانت العواقب، فهو لن يستطيع التخلي عن يونا.

ساوره فجأة شعور فظيع بأن الزمن يمر بسرعة مخيفة.

كان يعلم أنه يريد أن يتودد إلى يونا برقة فائقة، أن يشعر بتجاوبها معه كما تتفتح الزهرة لأشعة الشمس.

كان ذلك شيئاً غير عادي، ولكنه منذ عرف يونا لم ير من شخصيتها ناحية لم تبعث السرور في نفسه. كما أنه لم يجد في كل ما كانت تقوله ما هو غبي أو في غير محله.

ولكن لأنها كانت توقفه عند حده، ليس بواسطة شيء تقوله أو تقوم به وإنما ببساطة، بسبب هالة النقاء التي تحيط بها، فأدرك وهو يضبط مشاعره نحوها، أنه ليس بإمكانه أن يفقدها.

قال في نفسه: تباً لايرلندا! فقد وجدت لنفسي ما هو أهم بكثير لي شخصياً.

ولأنه كان مستغرقاً بهذه الأفكار، سارت بهما العربة وقد ران الصمت عليهما إلى أن هتفت يونا مسرورة.

عند ذلك رأى أنها كانت تنظر إلى نهر السين الذي كان يبدو فضياً تحت ضوء النجوم، بينما جسوره تعلو فوقه كالأساور في المعصم.

جلست يونا مستقيمة لكي تتمكن من الرؤية بشكل أفضل. بينما أخذ الدوق يتأمل جانب وجهها وقد أدرك أنها جذبته إلى حد جعله يدرك ذاهلاً أنه وقع في حبها.

فهو لا يستطيع أن يذكر أنه شعر نحو امرأة بمثل ما يشعر به الآن نحو يونا.

هذا بينما كانت يونا تتمتم: «هذه هي باريس الحقيقية. أما ما رأيناه الليلة الماضية فلم يكن سوى مظاهر زائفة.»

رأى الدوق أن قول الصواب هو طبيعتها الحقيقية.

سارت بهما العربة وقتاً طويلاً وقد بدا أن ليس ثمة حاجة لهما بالكلام، فقد كان قلباهما يتخاطبان دون حاجة للكلمات.

وفي الضوء الذي في مدخل المنزل، رأى في عينيها نفس التعبير الذي يتصوره في عيني فتى جاء لتوه من بلاد العجائب.

نزلا من العربة، واجتازا الردهة داخلين إلى الصالون وكأن الواحد منهما كان يعرف بالضبط ما يريده الآخر.

www.rewayti.net

وإذ وقفت تنظر إليه. همس يقول: «يا عزيزتي، يا حلوتي الجميلة.»

فردت عليه هامسة: «يا لها من سهرة... رائعة لن أنساها... في حياتي أبداً.»

بدا صوتها متهدجاً حين نطقت بالكلمات الأخيرة، ثم إذا بالدوق يراها، وقد تملكه الذهول، تتجه نحو الباب لتغادر الغرفة، فيصبح وحده.

وقف لحظة طويلة وقلبه يخفق للسعادة التي خلفتها فيه في هذه الليلة الرائعة التي أمضياها معاً، بينما صوتها العذب ما زال يتردّد في أذنيه.

ولكنه ما لبث أن حدث نفسه أن هذا ما كان يتوقعه منها، أما ما لم تكن تعرفه فهو أنه كان يريدها أن تبقى.

وقال في نفسه: «إنها صغيرة السن للغاية، ولا بد أن أتصرف معها بكل رقة. يجب ألا أقوم بأي شيء بسرعة.»

سار نحو النافذة لينظر منها إلى الحديقة.

ثم عاد يحدث نفسه قائلاً: «إنني أحب... أحب بشكل لم أصدق يوماً ان من الممكن حدوثه.»

ولكنه سأل نفسه عما يمكنه القيام به بهذا الشأن.

لقد أدرك الآن أنه يريد يونا معه إلى الابد. ولكنه ما لبث أن ضحك لسخافة هذه الفكرة.

فهو، بصفته الدوق ولستانتن، ينتمي إلى أسرة عريقة تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد الأسرة المالكة.

فهل من الممكن أن يتزوج من ابنة فنان؟

إن ذلك سيشوه سمعة العائلة. وسيلحق العار باسم آل

ولستانتن الذين لعبوا دوراً في تاريخ انكلترا والذين كانوا دوماً أصحاب كرامة وكبرياء في المجتمع، بصرف النظر عن كون تصرفاتهم الخاصة حسنة أو سيئة.

وقال بصوت عال: «هذا مستحيل.»

مع ذلك، فقد كان يعلم أنه يريد يونا من كل قلبه وأحاسيسه.

حاول أن يحدث نفسه بأنه عندما يتركها في النهاية، سيؤمن لها مبلغاً محترماً من المال طوال حياتها.

لكنه كان يعلم أن ليس ذلك ما يريده حقاً. فهو يريد شيئاً مختلفاً تماماً.

كان مغرماً... ذلك الغرام الذي كان بالضبط ما تغنى به الشعراء والكتاب، ورسمه الفنانون وألف به الموسيقيون الألحان.

كان شيئاً لا يصدق، أن ينتظر إلى أن يقارب الخامسة والثلاثين كي يشعر بكل هذا ومن ثم يقع في الغرام ما بين ليلة وضحاها.

ورفع صوته يقول: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل؟»

* * *

بعد ذلك بساعتين، صعد الدوق إلى غرفته.

عندما دخلها، وجد خادمه المتعب ينتظره فيها، وعندما انتهى من تغيير ملابسه وتركه الرجل، لم يرقد على فراشه بل وقف قرب النافذة يفكر.

كان في الساعتين الماضيتين قد وصل، بعد طول تفكير فيها، إلى قرار لا يقبل الجدل، وهو عدم تركها وحيدة.

www.rewayti.net

كان حبه أكبر من ذلك. كان يريدها، فكيانه بأجمعه كان يهفو إليها.

ولكن لأنه يحبها، فهو لن يفسد أي شيء من ذلك الكمال والجمال الكلي. وحدث نفسه بأنه سيعثر غداً على حل لما عليه عمله لأجلها.

وهتف من أعماقه: «كنت أظن أن الحب يعني السعادة، ولكن هذا عذاب، وكرب، ومعاناة.»

عند ذلك، إذا به يسمع الباب الذي خلفه يفتح بعنف.

الفصل السابع

كانت يونا قد غادرت الصالون وقد تملكتها سعادة بالغة وعندما وصلت إلى غرفتها، أخذت تفكر في أنه، مهما حدث في المستقبل، فسيكون لديها شيء لتتذكره، شيء ثمين رائع كانت تعلم أنها لن تعرف شيئاً مثله مرة أخرى طوال حياتها.

لقد أدركت الآن أن ما شعرت به، حين التقت عيناها بعينيه، بأنه كان الحب الذي اعتقدت دوماً أنها لا بد ستلقاه يوماً ما.

وها هو ذا قد جاء إليها بكل عظمته وإشراقه.

وأدركت أن عليه تأدية واجبه، وذلك بقبول مركز نائب الملك في ايرلندا.

لم تكن من الحماقة بحيث تظن أن بإمكانهما البقاء على ما هما عليه، وذلك في الوقت الذي سيكون له مثل ذلك المركز الهام.

إن وجودها معه لهو امر رائع، ولكنها كانت تعلم جيداً أنه من الخطأ بالنسبة إليها، أن تبقى في منزله دون مرافقة.

ولم يكن هذا قد بدا لها خطأً من قبل.

فهي في الواقع، لا تجد في أي شيء سبق وحدث، يمكن أن يساء فهمه، كالذي حدث منذ أخرجها الدوق من مطعم الطاحونة الحمراء.

www.rewity.com/vb
بلا عنوان

www.rewayti.net

فقد كان منزله بأكمله مثله هو، محاطاً بهالة من الجمال، ما جعلها تفكر في والدتها والجو الذي كان سائداً في بيتهم خارج باريس.

لكنها كانت تعرف جيداً ما كان آباء أي من الفتيات اللاتي كن في المدرسة يفكرون فيما لو أن بناتهم تصرفن مثلها هي.

ومع أنها كانت تسائل نفسها بيأس عما كان يمكن أن تقوم به غير ذلك، فقد كانت تعرف أن هذا شيء لا ينبغي أن يستمر.

وهي الآن لم تكن تفكر في نفسها ولكن في الدوق. فهو، بصفته نائب الملك في ايرلندا، عليه أن يمثل الملكة، وهذا، حتماً، لا يتضمن وجود فتاة شابة في منزله لا تملك مالاً ولا مكاناً تذهب إليه.

وأخذت تدعو من أعماقها: «ماذا أفعل؟ ماذا أفعل يا والدتي؟»

خلعت ملابسها ببطء، ثم اوت إلى فراشها.

وعند ذلك، ساءلت نفسها عن السبب الذي منعها من البقاء معه في الصالون ولو لفترة قصيرة فقط؟

أخذت تفكر في أنه سيتركها غداً عائداً إلى لندن.

خبأت وجهها في الوسادة وقد عذبها التفكير في افتراقها عنه.

ثم أخذت تبكي وهي تهتف بأسى مرة بعد مرة، أحبه، أحبه.

أرادت أن تبقى مستيقظة لكي تسمع وقع خطواته وهو يرتقي السلم آتياً إلى غرفته التي تلي غرفتها.

كانت تعلم أن غرفتها ليست ببعيدة عن غرفته، ولكن هذا لم يكن يعني لها شيئاً سوى أنه كان قريباً منها، الأمر الذي جعلها تشعر بالأمان.

كانت تعلم أن مجرد سماعها وقع خطواته يجعلها تشعر بأنها لن تحس بعد ذلك بالخوف أبداً.

تركت بجانب سريرها شمعة مضاءة وذلك كيلا يستولي النوم عليها، وبعدها أخذت تراجع في عقلها كل ما كان قد حدث أثناء المساء.

العشاء في مطعم غراند فيفور، الأشياء التي قالها كل منهما للآخر. النزهة في العربة المكشوفة، الأضواء في ساحة الكونكورد، المياه الفضية المتألقة فوق نهر السين.

كل هذا كان يبدو لها من الجمال والروعة، وكأنه حكاية خرافية. ولكنها كانت تعلم بأن هذا الأمر لن يكون له خاتمة سعيدة.

ومع هذا فقد كانت سعادتها فوق الوصف.

وأخذت على نفسها عهداً بأنها ستدعو له طوال حياتها، بأن يستمر بمساعدة الآخرين كما... ساعدها، وأن يستفيد الايرلنديون من عقله المنير وقلبه الكبير.

وفجأة، انتبهت من حلمها ذاك إلى باب غرفتها وهو ينفتح ثم سمعت صوتاً خشناً يسأل: «هل أنت نائمة، يا آنستي الجميلة؟»

أجفلت يونا وفتحت عينيها. كان اللورد ستانتون يقف عند الباب.

قال لها بلهجة مخيفة: «جئت.. لأقول لك...

www.rewayti.net

تصبحين... على خير... لأنك أجمل امرأة... وقع نظري عليها.»

جلست يونا في فراشها، وقالت: «اخرج من هنا. ليس لك الحق في دخول... غرفتي.»

حاولت أن تجعل صوتها غاضباً حازماً، ولكنه خرج من بين شفتيها مرتجفاً لا يكاد يعلو عن حد الهمس.

اجاب: «لقد بحثت... في كل باريس... فلم أر امرأة... في جمالك... هلا خففت من... خيبتي... وكلمتني بلطف؟»

فصرخت: «ك... كلا.»

ورأته يكاد يمسي بقربها غير مكترث باعتراضها. عند ذلك تذكرت أن في الجانب الآخر من الغرفة باباً يؤدي إلى جناح الدوق.

بدا لها ذلك في هذه اللحظة، أشبه بلوح من الخشب لشخص غريق. اندفعت تلقي بنفسها من الجانب الآخر من السرير على الأرض.

ثم، ودون أن تنظر خلفها، وقفت لتندفع نحو الباب المتصل بالغرفة الأخرى، وحاولت فتحه.

كان ثقيلاً أكثر مما توقعت، ولكنها استعملت كل قوتها لتفتحه، وفي هذه الاثناء كان هو يصرخ بدهشة بعد أن رآها تهرب منه.

دفعها الخوف إلى الركض بسرعة عبر الباب. ولكنها لم تجد الدوق كما كانت تتوقع، وإنما في غرفة صغيرة المساحة.

كان فيها نافذة ابعدت الستائر عنها، ومن الضوء الذي كان ينساب منها، رأت أمامها مباشرة باباً آخر.

دفعته بقوة، فانفتح إلى الداخل فكادت تسقط لدى دخولها الغرفة.

استدار الدوق إلى الخلف ذاهلاً وإذا به يرى يونا امامه في حالة من الخوف الشديد.

مضت لحظة لم تستطع فيها أن تتنفس وقد تقطعت أنفاسها.

سألها: «ما الذي حدث؟ ماذا أخافك؟»

ولما لم تستطع الاجابة عاد يسألها: «ما الذي حدث؟»

أجابت وهي ما زالت على حالها من الخوف: «ذ... ذلك الرجل... ابن عمك. لقد... أخافني.»

فقال بحدة: «أخافك؟ وكيف كان ذلك؟»

همست: «قال إنه يريد... أن... يكلمني.»

أدركت الآن أنها في أمان، طالما هي مع الدوق، وأن اللورد ستانتن لن يتمكن من الاقتراب منها بعد الآن.

هتف الدوق غاضباً: «هذا شيء لا أسمح بحدوثه في بيتي.»

وهم بأن يتجه نحو الباب الذي كانت يونا قد تركته مفتوحاً ولكنها هتفت بخوف: «كلا، كلا، لا... لا تتركني. كما أنه يجب ألا يحدث بينكما... شجار.»

سألها بخشونة: «ولِمَ لا؟ إنني لا أطيق أن يتصرف رجل في بيتي بهذا الشكل.»

لكنه وبينما قال ذلك، كان يعلم أن الذنب في ما حدث هو ذنبه هو.

ذلك أنه أوضح لابن عمه أن يونا لا أهمية لها في حياته، فالحق كان مع يونا، إذ من الخطأ الدخول في مشاجرة.

www.rewayti.net

وقف يربت على كتفها مهدئاً وهو يفكر في أنها أجابت على السؤال الذي حيره في الساعتين الماضيتين.

إنه يحبها وليس بإمكانه، مهما كانت الظروف، أن يتركها وحدها دون حماية.

قال لها برقة: «إنك في أمان يا عزيزتي، ولن يخيفك شخص مرة أخرى، بهذا الشكل.»

شعر بتوترها يخف قليلاً، فنظر إليها وقال: «إنني أحبك يا غاليتي، وقد صمتت على رعايتك بحيث لن تشعري بالخوف مرة أخرى.»

فأشرق وجهها، ثم قالت بتردد: «أنا لا... أفهم... فقد قلت لي بأنه... من المستحيل أن... أبقى معك.»

قال بهدوء: «إنني أطلب منك الزواج مني. وليس في العالم شيء أكثر أهمية من أن تكوني زوجتي.»

صدرت عن يونا صرخة تنم عن السعادة الخالصة.

فقد أدركت أنه يحبها بمثل العنف والصدق الذي تحبه بهما.

وهمست تقول: «أحبك... أنا أيضاً أحبك. لم أتصور قط أنني سأتمكن من أن... أخبرك بذلك.»

فقال: «إنني أحبك، وفي نيتي أن أقول لك ذلك مليون مرة وذلك بقية ايام حياتنا.»

«هل هذا صحيح؟ أيمكنك حقاً... أن تحبني إلى هذا الحد؟»

فقال:

«إنني لم أعرف الحب حتى هذه اللحظة، وقد وجدته الآن.»

تنفست يونا بعمق، ثم قالت بتردد: «ربما من الخطأ... بالنسبة إليك أن... تحبني... أعني...»

لم يتكلم الدوق، فتابعت هي تقول: «يجب أن تتزوج من امرأة... من طبقة راقية... خصوصاً وأنك ستصبح... نائب ملك.»

أجاب: «إنني لن أصبح نائب ملك. إنني سأتزوجك، ونحن سنكون من السعادة معاً بحيث لن يهمنا شيء آخر في العالم.»

سألته وقد انتبهت لأمر ما: «أتريد أن تقول إنك... لكونك ستتزوجني... لن تستطيع أن تصبح... نائب ملك؟»

كان الخوف قد عاد إلى صوتها، ولأنه لم يكن يريد لها أن تنزعج، قال بسرعة: «إني غير راغب في أن أكون نائب ملك. أريد أن أعيش حياة عادية هادئة، فأنا لا أريد مركزاً آخر ما عدا أن أكون زوجك.»

رفعت يونا بصرها إلى وجهه، ثم قالت: «هذا ليس صواباً. إنني أعلم أن هذا ليس صواباً بالنسبة إليك. فأنت بالغ الذكاء... ولامع للغاية... وكنت أفكر هذه الليلة، حين ذهبت إلى غرفتي، كم سيكون بإمكانك مساعدة الايرلنديين.»

فقال بحدة: «دعي عنك الايرلنديين. فأمرهم لا يهم. أنت من يهمني. فأنا أحبك. وسيأخذ مني قولي لك كم يبلغ حبي، وقتاً طويلاً.»

فقالت: «كلا. كلا. لا أستطيع... وإن كنت أحبك كثيراً.»

أخذ ينظر إليها برقة لم يرها أحد في عينيه من قبل.

www.rewayti.net

لقد أدرك أنه لم يصادف في حياته امرأة وضعت مصلحته قبل مصلحتها.

أدرك أيضاً أنه لا يوجد امرأة ممن عرفهن، لم تكن لتشعر بالطموح العنيف، ليس لأن تكون دوقة فقط، وإنما لأن تكون زوجة نائب ملك في ايرلندا.

بينما جلست يونا تفكر، لم يكن لديها فكرة عن الصورة الجميلة التي بدت عليها.

فقد انعكس على وجهها لون الستائر الحريرة القرمزية اللون والتي كان قد اختارها جده حين أثث المنزل.

كان هناك شعار ضخم لأسرة آل ولستانتن مطرز بألوان براقة على ظهر السرير، ورآها الدوق أشبه بأميرة جميلة في حكاية خرافية.

قالت وكأنها تتحدث إلى نفسها: «يجب أن... أفكر.»

فقال: «هنا الخطأ الذي تقعين فيه. دعي زوجك، وهذا ما سأكون، يقوم بالتفكير من الآن فصاعداً. إن كل ما عليك القيام به، يا جميلتي الرائعة، هو أن تحبيني.»

تقدم نحوها ببطء، وعندما رفعت إليه وجهها الصغير القلق، قال: «لقد عانيت أنت اليوم ما فيه الكفاية إذهبي ونامي وغداً سأحل كل مشاكلك بسهولة، لأننا سنتزوج وستصبحين زوجتي.»

اومأت رأسها، لكنها تذكرت الآن سبب هربها من غرفتها، اخذت ترتجف، فقال بسرعة: «لم يعد هناك أحد تخافين منه. وسأترك الأبواب مفتوحة لكي أسمعك إذا ناديتني.»

ابتسم لها وتابع يقول: «كان عليك أن تتذكري إقفال بابك.»

فقالت ببساطة: «لم أفكر في ذلك... لم يكن مسموحاً لنا باقفال الأبواب في المدرسة الداخلية.»

وأثناء كلامها، كان هو يتساءل كيف أمكنه أن يرتاب في براءتها ونقائها.

رأى نفسه أكبر الرجال حظاً في العالم، لأنه وجد كل ما يبحث عنه الرجل في المرأة، ولكن قلائل منهم من يعثرون عليه.

قال لها بهدوء: «سأعيدك إلى غرفتك.»

ثم تابع يقول: «لديك ما يكفيك من القلق هذه الليلة، ولهذا سأعيدك إلى غرفتك، يا غاليتي. وأريدك أن تنامي دون أن تفكري بشيء سواي.»

أجابت: «سيكون مستحيلاً... أن أفكر... في أي شيء... آخر.»

كان أثناء كلامه يسير بها نحو غرفتها.

ورأت يونا على ضوء الشمعة أن غرفتها خالية وبابها الذي ينفذ إلى الممر مغلقاً.

قال: «أحبك. وأريدك أن تعلمي يا حلوتي بأننا لو لم نستطع الذهاب إلى ايرلندا، فأنا سعيد بأن أعيش معك في انكلترا، ومن فرنسا أو في أي مكان آخر تختارينه.»

فقالت: «إنك رائع... بالغ الذكاء. ولكن، أرجوك... عدني... بشي واحد.»

فسألها: «وما هو؟»

www.rewayti.net

«هو أن تدعني... أعاونك ولو... قليلاً في كل شيء تقوم به. إنني لا أريد أن أكون... مزعجة... لا أريد أن... أفرض نفسي عليك... ولكنني أريد أن أكون جزءاً... جزءاً حقيقياً من حياتك.»

فقال: «ستكونين، على الدوام، الجزء الأهم في حياتي. الجزء الذي هو جزء مني، لأننا يا حبيبتي الصغيرة الغالية، لن نكون شخصين بل شخصاً واحداً.»

كان هو هذا الحب، الحب الحقيقي الذي ينبض في قلبها، الحب الذي فكرت مرة بأن عليها التخلي عنه.

تعرف الآن بأنها لن تشعر بعد الآن بالخوف، ولا بالوحدة، وبأنها لن تعود وحيدة في باريس ولا في أي مكان آخر.

* * *

استيقظ الدوق فوجد نفسه أسعد من أي وقت مضى في حياته.

إنه يعرف الآن أن كل شيء قد تغير، لا لشيء إلا لأن يونا دخلت حياته.

ان يونا ايقظت في كيانه جزءاً من نفسه ما جعله يتساءل الآن كيف استطاع أن يعيش من دونه.

اتجه ليقف عند الباب الفاصل بين غرفتيهما، وهو يقاوم دافعاً يدفعه إلى الدخول ليوقظها بنفسه.

حدث نفسه بأنها بحاجة إلى المزيد من النوم بعدما مر عليها أمس من أحداث، وعليه أن يفكر بها أكثر من نفسه.

اغلق الباب بهدوء تام، ثم قرع الجرس يطلب خادمه الخاص.

كانت أشعة الشمس تتألق على الاشجار في الحديقة، ما جعله يفكر، وهو ينظر من النافذة، أن مثل هذا اليوم يتمناه لزفافه.

كان قد انتهى تقريباً من ارتداء ثيابه عندما تعالى الطرق على باب غرفته.

وعندما فتحه الخادم دخل السيد بومونت إلى الغرفة.

كان الدوق يسرح شعره بفرشاة عاجية، فالتفت إليه بدهشة، وقال: «إنك مبكر، يا بومونت. ولكنني، في الواقع، كنت على وشك أن أطلب حضورك.»

أجاب بومونت: «إن دوبتشيرون هنا. وقد أحضر إليك هذه.»

ومد يده بنسخة من جريدة لوجور.

كان فيها مقالة قصيرة في اسفل الصفحة، وأخذها منه الدوق وهو يقول: «أظن دوبتشيرون يريد نقوداً أعطه ألف جنيه. فهو يستحقها.»

هتف بومونت: «ألف جنيه؟ هذا كثير.»

لم يجب الدوق، فأدرك السكرتير أنه لا ينوي الدخول في نقاش في هذا الشأن. وكان الدوق يقرأ المقالة في الجريدة والتي كانت معنونة كالتالي:

وارث مفقود

السيد كولدر والسيد ستيفنس، عضوا مكتب لندن المعروف للمحاماة، قد وصلا إلى باريس أمس لزيارة حي مونتمارتر.

www.rewayti.net

وهما، على كل حال، غير مهتمين برؤية الصور أو بالرسامين الشبان الذين جذبوا انتباه عالم الفن، ولكنهم يبحثون عن فنان واحد بشكل خاص والذي، كما يظنون، قد يكون مالكاً لمرسم في حي مونتمارتر.

لقد أعلن في الشهر الماضي عن وفاة اللورد دورست بشكل مفاجيء عن عمر يناهز الثالثة والخمسين. وكان غير متزوج، ولهذا يبحث محامو الأملاك عن شقيقه الأصغر، السيد جوليوس تورنتون، الذي سيرث ليس فقط اللقب وإنما أيضاً الأملاك الواسعة.

كان شقيق اللورد دورست قد غادر انكلترا منذ تسعة عشر عاماً بعد استقالته من فرقته في الجيش والهرب مع ابنة السيد روبرت مارلو. وقد أثار ذلك عاصفة في ذلك الوقت ما جعل والده اللورد دروست السابق، يقطع كل علاقة له بابنه، كما فعل السيد روبرت مارلو بابنته.

ويعتقد، على كل حال، أن السيد جوليوس تورنتون قد امتهن الرسم، ما جعله يظهر موهبة معتبرة في هذا الفن، واستقر في فرنسا.

وقد يكون قد أبدل اسمه، ولكن المحاميين مقتنعون بأنه إذا كان ما يزال حياً في فرنسا، فهو لا بد أن يكون معروفاً بين زملائه في مونتمارتر.

قرأ الدوق المقالة إلى النهاية، ثم قال لبومونت وهو يعيد إليه الجريدة: «أخبر دوبتشيرون بأن يحضر السيدين المحاميين لمقابلتي غداً صباحاً.»

فقال بومونت مستفهماً:

«غداً؟»

قال الدوق: «إنني سأكون مشغولاً عن رؤيتهم هذا النهار، وكذلك أنت.»

وقف سكرتيره ينتظر وقد بانت الحيرة في عينيه.

قال الدوق: «أولاً، أريدك أن تذهب إلى شارع دي لابيه وتبلغ عدة خياطات أن يحضرن إلى هنا في الحال أجمل ثياب صغيرة القياس لديهم، والقبعات الملائمة.»

اتسعت عيني السيد بومونت، ولكنه لم يقل شيئاً، بينما تابع الدوق يقول: «وبعد الانتهاء من ذلك، هل لك أن تذهب وترتب أمر زواجي في الساعة الثانية عشرة ظهراً؟»

هتف بومونت: «زواجك؟» وبدا التعبير الذي بان في ملامحه مضحكاً تقريباً.

وبجهد، استطاع السيد بومونت أن يتابع قائلاً: «يجب أن أهنيء سيادتك. إنها مفاجأة حقاً.»

ابتسم الدوق بمكر.

لقد كان يسره دوماً أن يفاجيء سكرتيره، وقد نجح هذه المرة حقاً في ذلك.

وضع فرشاة الشعر من يده ثم التفت قائلاً: «أسرع، يا بومونت.»

فقال السكرتير: «إنني بحاجة إلى ذلك حقاً. وبما أنك وصلت إلى مفترق الطرق، لا بد أنك عرفت ما تريد.»

سأله الدوق: «أتراك قررت ما إذا كان ذلك صواباً أم خطأ؟»

أجاب بومونت باسماً: «قد أكون مخطئاً، ولكنني أظنك اتبعت ما أملاه عليك قلبك، وهذا لا يمكن أن يكون إلا صواباً.»

www.rewayti.net

ضحك الدوق، وكانت ضحكة مفعمة بمرح صبياني، وقال: «وهذا بالضبط ما فعلته.»

اتجه السيد بومونت نحو الباب، ثم قال: «سأخبر السيد دوبتشيرون بما قلته يا سيدي، ثم أغادر المنزل حالاً إلى شارع دي لابيه لاحضار الخياطات.»

قال الدوق: «سأكون بحاجة إليك كشاهد على الزواج. ولا أريد غيرك أن يحضر.»

فتمتم السيد بومونت: «ذلك يشرفني.»

عندما فتح الباب، أوقفه الدوق، قائلاً: «بومونت.»

«نعم، يا سيدي.»

التقط الدوق رسالة كانت ملقاة على منضدة الزينة، وقال: «إذا بقي لديك شيء من الوقت هذا اليوم، يمكنك أن ترسل الجواب إلى رئيس الوزراء.»

قذف بالرسالة فدارت هذه في الهواء ومن ثم سقطت عند قدمي السيد بومونت، فانحنى هذا لالتقاطها.

قال الدوق: «أخبره أنه سيشرفني جداً وضع اسمي لدى الملكة لأجل مركز نائب الملك في ايرلندا وأنني وزوجتي سنبذل وسعنا لأجل تلك البلاد التي تألمت طويلاً.»

بدت ابتسامة راضية مبتهجة على شفتي السيد بومونت وهو يغادر الغرفة حاملاً بيده رسالة رئيس الوزراء، ولكن الدوق لم ير ابتسامته تلك.

ذلك أنه سار نحو النافذة ليلقي نظرة أخرى على الحديقة الغارقة في أشعة الشمس.

كان يعلم أن ما نشر في جريدة لوجور سيجعل الأمور

أكثر بساطة وسهولة في المستقبل، ليس بالنسبة إليه بقدر ما هو بالنسبة إلى يونا.

لقد كانت سعادتها هي التي يفكر فيها. وكان يعلم أن أقاربها آل دورست سيسرهم جداً الترحيب بها بصفتها الدوقة ولستانتن، وكذلك أسرة والدتها.

كان حدوث كل هذا في هذه اللحظة بالذات، حسن حظ لا يصدق.

لكن اهتمام الدوق كان منصباً على شيء واحد، وهو يونا.

كان يحبها، وقد شعر بالارتياح لما علمه من أمر أسرتها، ليس من وجهة نظره هو، وإنما من وجهة نظرها هي.

فمن ناحيته كان بامكانه أن يمضي حياته سعيداً جداً، وبهدوء تام يرعيها ويوفر الحماية لها مبعداً عنها شعورها بالوحدة.

ولكنه كان يعلم بأنهما معاً، لديهما من الذكاء والطاقة ما يكفي لكي لا يكون سعيهما في الحياة مقتصراً على ذاتيهما فقط.

كان التحدي الذي ينتظرهما في ايرلندا هو شيء بإمكانهما أن يواجهاه معاً، مما يطور شخصيتيهما ويحقق ذاتيهما.

تذكر ما طلبته منه الليلة الماضية في أن يسمح لها بمساعدته قليلاً في كل ما يقوم به.

إنه يعلم الآن أن ما سيطلبه منها لن يكون قليلاً، بل كثير. فهو كان يدرك، رغم صغر سنها، أن لديها من العمق في

www.rewayti.net

التفكير إلى حد غير عادي، وهذا لن يساعده فقط، بل وسيقوده أيضاً ويلهمه بقية حياتهما معاً.

بدت له الحديقة رائعة التألق، فاستبشر خيراً بذلك، راجياً أن تكون حياتهما مثلها متألقة، ليس بالنسبة إليهما فقط، وإنما بالنسبة إلى الشعب الذي سيساعدانه.

لقد كانت يونا هي من أحدث هذا التغيير في حياته، مانحاً إياها الهدف والطاقة اللذين لم يكونا هناك من قبل.

وشعر بشوق عنيف إليها إلى درجة أخذ معها يخاطبها بصوت عال وكأنها بقربه: «أحبك. لا تتصوري كم أحبك، يا غالية.»

تمـــت

قراءة ممتعة للجميع
مع تحيات أسرة منتديات روايتي
www.rewity.com/vb/
بلا عنوان

www.rewayti.net